القلوبُ البيضَاء

رَواية يوسُف القعيد

دار الشروق




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القلوبُ البيضَاء

الطبعــة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

© دارالشروق
بيروت : ص.ب : ٦٤ ٨ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
SHOROUK INTERNATIONAL, 318/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 637 2743/4, TELEX SHOROK 257790

الغلاف : حلمي التوني

القلوبُ البيضَاء

رِوَاية

يوُسف القعيد

دار الشروق



وَجَعُ التَّلاقي



.. يلتقي العاشقان يوم الجمعة الأخير من الشهر العربي. يلتقيان اثنتي عشرة مرة في العام. والعاشق هو الذي قرر لها ذلك. قالت سيكون الجمعة اليتيمة من الشهر العربي. رد عليها أن وصف اليتم يطلق على الجمعة الأخيرة من رمضان فقط. أما باقي الجمع الأخيرة من الأشهر الأخرى فلم يثبت يتمها حتى الآن. قالت له، وأيضاً لم يثبت إن كان لها أبوين وعلى قيد الحياة. قال لها وهو يحاول أن يغلق باب النقاش في الموضوع كله: الأب قيد والأم نقطة ضعف.

سكتت، فهمت أن العاشق يريد قفل الموضوع عند هذا الحد. طلب منها ترتيب أمورها على هذا الأساس. من الآن ولحين تغيير الموعد لأسباب أخرى، مع أنه يكره التغيير في العادات والمواعيد. ويقلقه هذا التغيير كثيراً.

كانت لا تعرف التقويم العربي، وكل معلوماتها عنه مرتبطة بالمواسم والأعياد وشهر رمضان وسفر الحجاج إلى بيت الله الحرام. باقي التواريخ الأخرى، ولعل أهمها يوم

صرف المرتب لها. يأتي حسب التقويم الإفرنجي. كل الأمور حولها تتم وفقه. شعرت بالحيرة.

قالت له: ستكون هناك صعوبة في معرفة أيام التلاقي وتخشى أن تتوه بين الأيام ولا يلتقيان، يضربان في التيه. كل منهما في اتجاه، بعيدا عن الآخر. ما العمل؟ إن حدث هذا فهي لا تعرف عمله ولا عنوان مسكنه ولا توجد لديها طريقة للاتصال به ولا حتى بالبريد. كادت أن تبكي وهي تقول أن الخيوط بينهما متقطعة. وإن كانت موجودة فهي من طرف واحد. وحتى هذه الخيوط التي من طرف واحد، فهي واهية وضعيفة ويمكن لهبة ريح بسيطة أن تقضي عليها. هو الذي يعرف عنوانها، ومع هذا فحضوره إليها صعب، إن لم يكن مستحيلاً.

لم يرد عليها، سكت حتى انتهت من كلامها، أخرج من جيبه أجندة صغيرة. جلدها لونه بني غامق، رقيقة الحجم، لدرجة أنها فكرت في سؤاله، إن كانت توجد فعلاً أجندات بهذا الحجم الدقيق، يمكن حملها في كل مكان، وفي جزء صغير من حقيبة يدها. كان مدوناً بها الأيام والليالي والساعات الطويلة، على مدار السنة كلها. حسب التقاويم الثلاثة: العربي والإفرنجي والقبطي. كل يوم له صفحة صغيرة ومقسّمة بشكل جميل. كان قد علم لها في صفحات

أيام التلاقي الإثنتى عشرة. ودوَّن بخطه وبقلم حبره الأسود المواعيد، محدداً الزمان ومكرراً المكان الواحد الذي سيلتقيان فيه.

كررت بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ الجمعة اليتيمة.

رفع يده في المسافة الطويلة بين وجهيهما:

ـ كفانا يتماً.

قالت لنفسها دون أن تجعل الصوت يصله:

ـ من كان يتصور أن العام الواحد فيه اثني عشر يوماً يتيماً؟

نظرت إلى الخطوط المدونة في الأجندة بمعرفته، سألته لِمَ يكتب بحبر أسود. مع أن الشائع هو استعمال الحبر الأزرق. والعشاق يكتبون بحبر أخضر يؤكد اخضرار القلوب على مدار العام كله. حتى في فصل الخريف الشاحب العاري من كل لون أخضر.

كرر رفع يده مشوحاً بها. في المسافة الطويلة بين الوجهين. قال لها:

ـ كفانا سواداً.

قررت أن تصمت. خافت من غضبه. وخافت من بعده

عنها ومن احتمال فقده، فهي لا تعرف ماذا تفعل بدونه. أفهمها أنه لا يحب كثرة الأسئلة. وقالت هي لنفسها: كيف تبتلع تساؤلاتها وكيف توجه كل الأصوات إلى الداخل. كانت تسمع أمها تقول أن القلوب التي لا تفضفض عما بنفسها تجمع الهمّ حبات حولها مثل عناقيد العنب الجافة. وعندما تزداد الحمول على القلب المتعب، من كثرة العناقيد حوله، فإنه يسقط في بئر الإنسان من الثقل.

خافت من الحديث إليه. دعت بصوت خافت:

ـ اللهم حنِّن القلوب على القلوب.

تعودت أن تضع الأجندة في حجرتها، بجوار سريرها. تحرك ورقة منها مع كل صباح. وتطل في عشر ورقات قادمة. حتى تصل إلى اليوم المحدد. كانت تخشى ألا تعرف يوم التلاقي قبله بعدة أيام وتستعد له طويلاً. وخوفاً من السهو، أحضرت اثني عشر من مشابك شعرها وعلّمت بها صفحات أيام التلاقي حتى تعرف الموعد قبله بأيام طويلة. وكلما نقص عدد الأوراق المؤدية إلى اليوم، ازداد استعدادها للقاء الحبيب البعيد. تنظر في ورقة مواعيده كأنها قد خطت فيها رسالة مقدسة لها. آتية من عام بعيد لا تعرف مداه أبداً.

قبل التلاقي بأيام تغسل ملابسها التي سترتديها معه،

وتكويها، تمر عليها قطعة قطعة خوفاً من أن يكـون فيها قـطع أو خرق في مكان ما. منديل يديها تختار لونه بعنـاية، يكـون قريباً من لون الملابس التي سترتديها، تغسله وتكويه وتغمسه في ماء الكولونيا التي اشتراها لهـا وقال أنـه يحب هذا النـوع من الكولونيا بالـذات. تحضر الشعـر المستعار، الـذي تضعه فوق رأسها. اشتـراه لها بنفسـه. نوع من الشعـر يحبه. لـون شعر الفئران، ليس أسمـراً ولا يعد لـونه أبيضـاً. أخذتـه على مضض. كانت تحب أن يكون الشعـر لونـه أقرب إلى البني. يعـطي في ضوء الشمس لـوناً أحمـر يثير الـرجل، فكّـرت أن تطلب منه ذلـك اللون. ولكنه كـان يتحدث عن اللون الـذي يحبه وكأنه جزء من وجوده نفسه.

قالت لنفسها، عجيب أمر ذلك العاشق. يبدو أنـه يبحث عن امرأة أخرى فيهـا. أوجه الشبـه بينهما ليست دقيقـة، ثمة فوارق وهو يحاول تقريب هـذه الفوارق. من خـلال اللمسات التي يطلبها منها بحجة أنه يحبها. أحست بـالإهانـة. أدركت أن المسافة بينها وبين الطيف الذي يبحث عنه طويلة. قالت: ربمـا كانت تمثـل له دور إنسـانة أخـرى. ومع هـذا لا طريق أمامها. ليس في إمكانها سوى الاستمرار معه.

تخرج بطاقتهـا وكرنيـه عملها وورقـة تدوِّن بهـا الطلبـات التي تنوي إحضارها من مصر أم الدنيا وتضعهـا مع البـطاقة.

ومع هذا لا تجد ـ في كل مرة ـ الوقت لكي تحضر معها أي شيء.

مساء الخميس، ليلة الجمعة، ليلة القفز والترفيص، الليلة المترعة بالوصال والارتواء والعشق. هكذا تسمعهم يتكلمون في البلد. ليلة السباحة في عرق احتكاك الأجساد المدفوعة برغبة التوق والتواصل. منذ آذان العشاء وحتى بكة الشمس وصمت البلد الليلي يتحول في أذنيها إلى فحيح من الآهات والتأوهات وأصوات القبلات والضحكات الفاجرة. كم تعذبها هذه الليلة. وكم يصل العذاب بها إلى منتهاه في ليلة الجمعة اليتيمة بالذات.

تقول لنفسها، إنها من المفروض أن تنام مبكراً. ولكن النوم يجافيها في هذه الليلة بالذات. بينها وبين النوم جفوة وخصام قديم ولا تسعد به سوى في ليالي الشتاء، إذ يأتي إليها بمجرد أن تدفىء جسمها بالأغطية الكثيرة. إشتكت له من الأرق والسهاد ليلة التلاقي. رغم أنها في السادسة صباحاً، مفروض أن تكون واقفة على المحطة لكي تأخذ أول مواصلة إلى البندر.

إكتفى بأن طلب منها أن تستحم بماء بارد في الصيف وماء دافىء في الشتاء قبل النوم مباشرة وستنام بمجرد وضع رأسها على المخدة وستكون الأحلام سعيدة. حذرها من

الاستحمـام صباحـاً، لأن ذلـك قـد يعـرِّضهـا لنـزلات البـرد وأمراض الصدر. دق القلب مـزغرداً. أتعبت دقـاته صـدرها. حبيب القلب يخاف عليها. ذلك أبعد مما كانت تتمنـاه. وإن لم يقل ذلك بوضوح.

في الرابعة والنصف تنـدفع ضـربات المنبِّـه ممزقـة ستار الصمت الليلي بقسـوة. اشترى لهـا المنبِّـه هـديـة في اللقـاء الثـاني، وفهمت هي أنـه قصـد من الهـديـة أن يـطلب منهـا المحافظة على دقة المواعيد معه. في اللحـظة التي تبدأ فيها دقـات المنبِّه لا يكـون قد مضى على إغمـاض عينيهـا سـوى دقائق معدودة. تمد يدها، تسكت المنبِّه بسرعة حتى لا يوقظ زوج خـالتها فتتحـول بدايـة اليـوم إلى معـركـة. تمشي على أطراف أصابعها فالكل نيام. وفي حـالات استتباب الصمت، حيث يتحـول إلى غـطاء كثيف يلف البلد بـداخله. يبـدو في ثقل وإحكام الحديد. فـإن أي صوت يبـدو له رنين لا يعـرف الإنسـان مصـدره أبـداً، وإن سمعهـا أحـد في هـذا الـوقت، فالكل يعرف أنها ذاهبة لزيارة أمها في القرية البعيدة ولن تعود من هناك سوى آخر النهار ومع قدوم الليل.

تصحو من الرقاد، رغبتها في النـوم لا حدود لهـا، عظام الرأس تؤلمها، جفون عينيها كـأن تحتهمـا طبقة من الملح. ومع هذا تقوم. ما من مـرة صحت من نومهـا في يوم التـلاقي

وكـانت قد استـراحت في نـومهـا. تهمس لنفسهـا، أنهـا مـا شبعت من شيء في حيـاتهـا كلهــا حتى الآن. تمنّي نفسهـا بالشبع من يـوم المحبوب، الـذي تنتظره شهـراً بأكمله. بعـد اللقـاء تبدو لهـا الأيام المتبقيـة مثل الجبـل. أيام بـلا نهايـة. وتبدأ الأيام مثل القطرات. تمضي بطيئة كذرات الرمـال حتى يقتـرب يوم التـلاقي. تعيش يوم التـلاقي بخيالهـا ألف مـرة. وتعد الكلمات التي ستقال والطلبات التي تتمناها ويأتي اليـوم بـالتعب والضنى الذي يجعلهـا لا تستطيـع أن تدرك حتى مـا يحدث فيه.

تنـظر لنفسهـا في بعض أجـزاء هـذا اليــوم. وفي بعض اللحظات يخيَّل إليها أن التي تضحك وتتحرك وتأكـل وتبتسم إنسـانة أخـرى غيـرهـا. تتصـرف نيابـة عنهـا في مثـل هـذه المواقف، وأنها ليست لها علاقة بهذه الإنسانة.

تخـرج من المنـزل في الخـامسـة صبـاحـاً، تمشي في الـطريق. خضرة الـزرع ليست هي نفس الخضرة. ولا زرقـة السمـاء هي نفس الزرقـة وليست لها أعمـاق. شاهـدت هـذا الـطريق ألف مرة ومـع هذا تبـدو كمن تسيـر فيـه لأول مـرة. يخرج الطريق من الليل. ضباب الصباح الذي تبدو الحياة من خلاله وكأنها حلم لا ينتهي. رقـة الفجر وطلعـة النهار وفـرحة النـور تغسـل القلب. يـرحـل الليـل، يصعـد إلى السمـاء أو

تمتصه الأرض. الآن تتلون الأشياء بـالظلال والنـور. الأخضر تتأكد خضرته والأزرق يبدو أزرقاً. الحقول حولها في حالة من النضارة والغندرة وكل هذا ينعكس عليها.

تخرج من البيت والوقت هو الفجر، البيوت مغلقة نائمة. يبدو الوقت وكأنه وقت مهجور في القرية كلها. القطط تنساب مثل المياه المسفوحة أمـام البيوت تبحث عن بقـايا طعـام من الليلة السـابقة. تلك البقـايا التي لا وجـود لها، لأن الـطعـام نفسـه أصبح شحيحـاً في هذا الـزمان الصعب. رائحـة النـوم تخـرج من أبواب البيـوت المواربـة وصوت تنفس النيـام يبدو واضحاً والكلاب التي قضت الليل في حراسة بيوت أصحابها قـامت من رقـدتهـا، من مكـان رقـادهـا على الأرض مخلفـة مساحات بنفس أشكال أجسامهـا، خاليـة من الندى والـطل، حيث يبدو التراب واضحاً راسماً شكل جسم الكلب. وبعض الكلاب الأخرى مـا تزال نـائمة، تصحـو على صوتهـا، تفتح عيـونها، تنفض أجسـامها بعنف مبعـدة قطرات المـاء عنهـا. تقف،تبحث عن مكان تتبول فيه، غالبـاً ما يكـون حائط أحـد البيوت، حيث يرفـع الكلب إحدى قـدميه الخلفيتين ويقتـرب من الحائط ويتبوَّل.

هـواء الصباح البـارد والبكر يبـدو منعشاً. الـوقت مـا بين الفجر والصباح، إنها فترة مسحورة في القرية ولهذا تبدو البلد

وكأنها تتدلى متأرجحة خارج الزمان. وبقدر ما تحب هذه الصورة في البلد بقدر ما تبدو البلد خلالها مهجورة موحشة.

إنها ساعة مثل اللؤلؤ يتمهل فيها الزمان ويفحص نفسه. تسير، تتوقف، تخرج مرآة صغيرة من حقيبة يدها، تنظر فيها، تتألق عيناها تألق الصباح الطري حيث كل الأشياء برّاقة، تقول لنفسها، إن بريق عينيها هو بريق المرض.

وفي الطريق إلى مصر تطلع الشمس، تخلع عليها طبقة ذهبية وتحيط كل المرئيات بمساحة من الذهب في وقت لا يوجد فيه من الذهب معها سوى أسنانها الصناعية.

أمامها مشوار. تركب مواصلة من البلد إلى بلبيس، ومنها إلى الزقازيق. ومفروض أن تكون في مصر أمّ الدنيا في التاسعة صباحاً. حيث ينتظرها المحبوب في محطة مصر، أو محطة السكة الحديد. وعلى الرغم من أنها تصل بالسيارة إلا أنه اختار هذا البوفيه بالذات ولم تشأ مناقشته في اختياره.

تعوّدت أن تكون هناك، قبله بنصف ساعة على الأقل، وأحياناً تكون هناك في الثامنة. قالت لنفسها إن كل ما يجري من اختياره. ومن بين كافة هذه الاختيارات هناك اختيار وحيد محبّب إلى نفسها، وهو يوم الجمعة. تبدو الحياة فيه وكأنها غابت، لا زحام ولا توتر. منذ لحظة خروجها من بيت خالتها

وحتى وصولها تشعر بحالة من الهدوء والسكينة، كأن العالم كله انسحب إلى مكان آخر،تكره الزحام وتتضايق من وجود الآخرين وتحب الانفراد بنفسها لدرجة أنها تجد لذة من نوع خاص عندما تحدث نفسها. تقول ما لا تقوله للآخرين. وعندما تعجز عن الحديث مع الآخرين توفر الكلمات بداخلها حيث تحولها إلى نجوى داخلية مع النفس.

عندما بدأت رحلاتها الشهرية إلى مصر، احتارت ماذا تقول لخالتها، إن عرفت الحقيقة ربما منعتها وإن لم تمنعها ربما طلبت منها ما هو أكثر. أحضرت معها زميلة لها من مصر باتت عندها، وقالت لخالتها أنها ستزور الصديقة في بعض الأحيان. خالتها وافقت ولكنها نبّهتها أن تقول لزوج خالتها أنها ذاهبة إلى بيت أمها. وإن كانت لديها إحساس أنها تعرف الأمر على حقيقته رغم أنها تبدو كمن لا يعرف.

لحظة خروجها من البيت، تدوس على التراب الذي تخلله قطرات الندى الليلي. وعلى أوراق النباتات، ترى قطرات الندى تستيقظ تحت أضواء شمس الصباح. كم تبدو شفافة هذه القطرات. تنظر إلى اللون الزجاجي الشفاف، تتطلع إلى زرقة السماء الخالية، تشعر برغبة في البكاء، آه لو تسعفها دموع العين في ذلك الوقت البكر؟ تضن العين بدموعها مثلما تضن شفتي المحبوب بالكلمات هناك في

مصر أم الدنيا. تكرمش القلب وجفت العينان. تستنشق هواء الصباح الطري وسط الحقول.

وهي في الطريق إلى الجسر، تتمنى لو تمكنت من أن تأخذ قليلاً من هذا الهواء البكر معها لكي يستنشقه المحبوب لعله يخرج من حالته. إنها تعيش في نفس البلد وسط نفس الحقول وهذا الهواء موجود في كل وقت وإن كان طعمه الخاص لا يصلها إلا في ذلك اليوم اليتيم من كل شهر. تتمنى لو تحضر الحبيب إلى هنا. يمشيان معاً في ذلك الوقت الفجري البكر. ولكنه أفهمها ـ حتى قبل أن تطلب منه ذلك ـ أنه لا يحب تغيير عاداته. قال إن أي تغيير في عاداته الثابتة يسبب له حالة من الاضطراب النفسي.

هذا اليوم، يبدأ بصورة عادية بالنسبة له. مساء الخميس، ليلة الجمعة، الليلة المفترجة، لا يحبها أبداً، ينظر في الليل للنوافذ المضاءة، يتوقف عند النوافذ التي ينبعث منها ضوء أحمر. يقول لنفسه: لا عمل لهم سوى الجنس، مضاجعات هروبية من كآبة الواقع. تهتز الأرداف الثقيلة والصدور المثقلة باللحم المتهدل والبطون المنتفخة ببقايا الطعام. تحاول استثارة رجال مكسورين تحت وقع الحياة اليومية. أف لهذه الحياة الراكضة من حوله، الطائرة في كل اتجاه، المتقافزة بصورة تدعوه للغضب.

يشعر بضيق. يقل إحساسه بالضيق إن كان الغد هو جمعة التلاقي. ويزداد الضيق إن كان يوماً عادياً، لن تحضر فيه، يقول إنه يوم لا جديد فيه يخرجه من هذه الحالة. يغضب بالليل. ما أسهل الفعل في بلادنا هذه الأيام. ولكن أين هي الرغبة فيه. لا يحب يوم الجمعة، لأن إحساسه بالوحدة يصل إلى نخاع العظام فيه.

تبدو شقته مثل القبر، ترن فيها الأصوات الخارجية ويتردد صداها. تزعجه أصوات البشر في الشوارع. لماذا تدب هذه الكائنات في الحياة. يتساءل بضيق: لِمَ جاءت إلى العالم؟ أي رسالة يقومون بها غير إزعاجه في كل وقت يمر؟ تصله أصوات السيارات المسرعة، يزداد غضبه «دائماً مسرعون» و«لا يعرف أحد السبب في هذه السرعة». ضجيج الراديوهات التي لا مفر منها أبداً، الخناقات، الضحكات، الأخبار اليومية المتناثرة في الشرفات، الأسرار المستباحة في المسافات الضيقة الواسعة بين نافذة وأخرى. يقول لنفسه: إن كل بيت من البيوت التي تحيط به عبارة عن حزمة من الأسرار التعسة. حكايات الإحباط وقصص العجز المغطاة بطبقة من البهرج والألوان الصارخة الخارجية والتي تخلو من الدفء الإنساني.

الصخب والضجيج اليومي المتكرر، يمتصهما هدوء يوم

الجمعة، يصحو في السادسة صباحاً، يفتح عينيه، ينظر في الساعة المعلقة بجوار سريره المنخفض من المنتصف تماماً، سرير فردي. لو كانت هنا إمرأة لكان فيه منخفضان بطول وعرض الجسم الإنساني ولكنه بمفرده الذي ينام فيه. يبدو الفراش مرتباً وكأنه لم ينم فيه أحد. ينظر للساعة المعلقة في مواجهة السرير. أف. يقولها بقرف. ثلاث ساعات طويلة ممطوطة الدقائق مستطيلة الثواني. عدد لحظاتها يساوي عدد حبات الرمال في الصحاري. الصحاري القديمة المترامية الأطراف. يبدو اللقاء بعيداً. مع أنه لقاء يكتسب أهميته من أنه يخرجه من وحدته الطويلة.

لا يقوم من السرير، يفضل أن يظل نائماً على ظهره ينظر في سقف الحجرة. يلاحظ الأماكن التي سقط منها الدهان في السقف. تبدو المناطق مثل الخريطة، في يوم يراها على شكل بطة فيسيل لعابه. ويحاول أن يتذكر متى أكل طعاماً مسبكاً آخر مرة، وفي يوم آخر تبدو مثل سحابة صيف فتذكره بالنقاء البعيد. آه لو تعود أيام الشباب من جديد، مهما كان الثمن. ولكن هل يعود الذي مضى؟ هل يقوم الموتى من القبور؟ هل تفتح الأعين التي أغمضت إلى الأبد؟

يشعر برغبة في القيام من السرير، يؤجلها حتى يأتي وقت نزوله. القدم الصناعية بالقرب منه مسنودة على شباك

السرير الذي ينام عليه، لن يقوم من هنا سوى مرة واحدة. صوت القدم الصناعية مزعج، يتحول في الشقة التي تحته إلى طبل عالي الصوت. يصحي جيران الجيران من النوم في اليوم الوحيد الذي ينامون فيه حتى الضحى، وتلك نومة لا يحصلون عليها في باقي أيام الأسبوع ويخجلون من إرسال إبنهم الصغير إليه ليطلب منه في أدب الأ يزعجهم ولهذا يذوب هو خجلاً كلما تحرك في شقته.

بعدما جرى الذي جرى، وحضر لأول مرة بالقدم الصناعية المصنوعة من خشب الزان القوي والحديد، نصحه أحد الجيران بطريقة مهذبة بأن يسكن في الدور الأرضي. لم يقل له يومها، أن الهدف من النصيحة ألا يزعج دبيب القدم الحديدية الجيران، ولكنه قال أن السبب في النصيحة حتى يعفيه من صعود السلم والنزول منه خاصة وأن سلم البيت الذي يسكنون فيه يصعد بطريقة مدببة مثل الجبال.

رفض النصيحة، قال أنه سيشعر بالاختناق إن سكن بالقرب من الأرض. في الأيام التالية اكتشف عناء صعود السلم وطلوع الروح مع درجاته التي بدون عدد. شعر بالخجل عندما يمر عليه الجيران وهو واقف على الدرجات حتى يأخذ أنفاسه. كان يكره نظرات الشفقة والرثاء ويرفض كل محاولات مساعدته أو حمل ما معه.

فكّـر في مفاتحـة الجيران في مسـألة انتقـالـه إلى الـدور الأرضي، ولكنه خلال تـردده وتقليب الأمر في ذهنـه. فوجىء بأن الشقة الأرضية تحولت إلى محل من محلات هذه الأيام. «بـوتيـك» كم يكـره هـذه الكلمـة. بـابهـا الـداخلي خلع من مكـانه، تم سـده ببناء أصم. وعلى الشـارع تم فتح أكثـر من باب لها. سكانها باعوهـا ورحلوا إلى منطقـة بعيدة وصـاحب البيت غيَّر عقد الإيجار نظير مبلغ محترم. لا يحب تذكُّر هـذه الأرقام، ضخامتها تقول له أنه من عصر مضى وانقضى. أجل الأمر كله.

منـزله قـريب من المحـطة، المسـافـة صغيـرة تعفيـه من استجـداء سيـارة تـاكسي تـوصله ومن همـوم إدخـال قـدمـه الصناعية في السيارة. سيارات هذه الأيام صغيرة، والناس في هذه الأيام لن تجد الوقت المتاح حتى لكي تموت فيه، الكل في حالة سبـاق من نوع غـريب، ليست له نقـطة بدء ولا خط يمكن أن يعرف عنده الأول والثاني والثالث والأخير.

يخـرج من السـريـر، يـذهب إلى دورة الميـاه، وآه من عـذاب الجلوس هنـاك لـدقـائق معـدودة. كـانت ـ في ذلـك الزمان البعيد الذي مضى ـ هـذه الجلسة تسبب لـه حالـة من الراحة النادرة. الآن ما قيمة كان وكانت وكانوا؟

يحلق ذقنـه، لا يمكنه الـذهاب إلى المحبـوبة إلا وذقنـه

حليق في الصباح حتى لو كان قد حلقها مساء الليلة الماضية. يرتدي ملابسه، كلها مغسولة ويلبسها لأول مرة بعد الغسيل، حتى الملابس الداخلية. وكل الملابس مكوية منشاة لامعة.

يخرج من باب شقته في التاسعة إلا ربعاً. يحاذر أثناء نزوله على السلم، يفكر في كل صباح يتيم أن يشتري قطعة من الكاوتشوك لكي يركبها في آخر القدم الصناعية ولكن كافة الأمور مؤجلة.

الوقت هو الضحى، يشتري الجرائد الصباحية الثلاث وجريدة مساء الأمس وعلبتين من السجائر واحدة له وأخرى لها. يتمشى بهدوء في شوارع صباح الجمعة اليتيمة الخالية. تتداخل الخطوات في حساب ذهني مع الدقائق.

يدخل البوفيه وساعة محطة السكة الحديد تدق الدقة التاسعة. مع الدقة الأخيرة تخبط قدمه الحديدية أرض البوفيه. ينظر الآخرون إليه، تغطيه النظرات فيشعر بالضيق. قرر أن يطلب منها الجلوس بجوار الباب حتى يجلس بمجرد دخوله إلى البوفيه بدلاً من المرور وسط شرائط الأعين التي تأكله بنظراتها بدون رحمة. وقرر أيضاً أن يكون دخوله إلى البوفيه بقدمه السليمة أولاً حتى لا يحدث ذلك الصوت المزعج كل مرة.

يقترب منها، تقوم من جلستها متهللة، تمد يديها ونظرات عينيها وخفق قلبها.

تهتف بكل رحابة صدرها:

ـ صباح الخير.

تمسك يده، تساعده على الجلوس في مكان فسيح حتى يتمكن من مدّ قدمه الصناعية حتى آخرها. تفكر في سؤاله، لماذا لم يركبوا له قدماً يمكنه ثنيها أكثر من مرة، لكي لا تواجه صعوبة العثور على مكان متسع كلما جلسا، ولكنها لا تعرف كيف تصيغ السؤال، ولا تضمن رد فعله على السؤال. تقول ربما وجدت في المرة القادمة طريقة تطرح بها السؤال دون مشاكل.

يرد عليها وهو يجلس:

ـ صباح النور يا آنسة شهد.

تنظر الأعين نحوهما وقد انسكبت عليها حالة من الدهشة، تفضل لو يناديها بكلمة يا ابنتي حتى لا تأكلهما نظرات الآخرين. ستحاول أن تطلب منه ذلك، ولكن فيما بعد.

تخرج منديلها المعطَّر وتمسح قطرات العرق من فوق وجهه. تتركه وتذهب بنفسها تطلب فنجان قهوة سادة له،

وفنجان شاي لنفسها وتعود بسرعة لتجلس معه. يشرب قهوته المرة في صمت وتشرب هي شايها الذي تضع فيه كل السكر الموجود معه وأحياناً تطلب سكراً إضافياً، وتقلب الشاي حتى يتحول أسفله إلى سائل سميك من كثرة السكر فيه.

ينظر إليها ويتساءل، كيف تطيق كل هذه الكميات من السكر. ينظر للجالسين في البوفيه، مسافرون وبيوتهم هي الحقائب التي معهم. تقول ملامحهم أنهم قضوا الليلة هنا، ذبول الوجوه، تآكل رموش الأعين، والتعب والسهاد المتحرك على الوجوه. يتساءل: كيف يقضي الإنسان ليلته جالساً في ليالي الشتاء؟ يقول: ربما كانوا أسعد حالاً هناك من يقضي ليلته في السرير ومع هذا ربما كان أكثر تعباً منهم.

في التاسعة والنصف يخرجان من البوفيه، نظام ثابت لا يمكن تغييره أبداً. يسيران، لا تحب أن تسرع في سيرها حتى لا يبد وعرجه واضحاً. تبطء من سيرها. على الرصيف الخارجي للمحطة يلمحهما المنادي. يجيء من نفسه، يعرض أن يحضر لهما تاكسياً. الوقت هو صباح الجمعة والعمل في حالة ركود.

يحضر تاكسياً، يفتح الباب له أولاً، يجلس بمفرده في المقعد الخلفي، لأنه يمد إحدى قدميه بطولها على الكنبة، تجلس هي بجوار السائق. تصبر حتى يتمكن من إدخال قدمه

الصناعية في التاكسي بمساعـدة المنادي. تصمت حتى ينتهي ويستريح في جلسته.

تقول للسائق:

ـ المعادي من فضلك.

قبل أن تتحرك السيارة، يشكر المنـادي، ماداً لـه يده من نـافذة السيـارة، فيها ورقـة بخمسـة وعشـرين قـرشـاً. تقـول لنفسها، إن كل ما يقدم له يدفع ثمنه على الفور وكأن كـل ما في الحيـاة لا بد وأن يكـون لـه ثمن. تشعـر بـالضيق تهمس لنفسها: أف من فهمه للدنيا وما فيها.

وهو يشكر المنـادي يكون صـوته متعبـاً ودقات قلبـه تبدو واضحة وتفصل بين الكلمة والأخرى تتحرك السيارة، تحـاول هي رؤيتـه في المرآة التي أمـامهـا طـوال الـطريق. تتمنى لـو تلتقي النظرات عبر المرآة ولكن الرجل يكون ساهماً. نـظراته مشدودة بخيوط غير مرئية لسقف السيارة ولا يغيِّر هذا الـوضع حتى يصلان معاً إلى المعادي.

في المـرة الأولى جلست بجـانبـه، كـانت المـرة الأولى وكانت الأخيرة أيضاً التي تلتصق به. أحست بقشعريرة عنـدما شاهدت الخشب والحديد في قدمه. تمنت أن تراه عارياً.

أفهمها بعد الـوصول إلى المعـادي، أن تجلس بمفردهـا في المقعد الأمامي لأن ذلك أفضل لهما معاً.

رحابة الصمت



صباح الجمعة، تخلو شوارع المدينة من الناس. يبدو أن إسفلت الشوارع والأرصفة وواجهات البيوت قد أخذت إجازة هي الأخرى.

في أول المعادي تلمع المدينة كأنها امرأة عارية تامة النضج أو حسناء دافئة الدم، يصلان إلى المعادي وهي تستعد للاستيقاظ وبدء يوم آخر من سلسلة الأيام المكررة والمعادة.

في المعادي واجهات متناثرة من الأبهة والبيوت الحجرية. أشجار الشوارع ليست خضراء ولكنها رصاصية اللون. والأرض سوداء والمشهد كله يسبح في بحر ساطع من شمس الصباح. للحظة عابرة، تبدو نفسه مثل كرة بللورية من الصفاء. ومع هذا يتساءل: من يرتب له ما في ذهنه؟ والظلال الهامسة المفروشة على الجانبين كثيرة.

يدخلان الكازينو. فينظر هو ناحية النهر. يتجهان إلى

أقرب مكان من النهر وأبعد مكـان عن الناس. يجلسـان على حافة الماء تماماً. في بعض الأحيان تمـد يدهـا فتغمسها في مياه النهر. يجلس بطريقة واحدة في كل المرات ظهره للناس ووجهه للنهر. لهما مائدة معينة، عندما تكون مشغولة يجلسان بالقرب منها وبمجرد أن تخلو من الناس ينتقلان إليها وعندمـا تكـون خاليـة من لحظة الـوصول يشعـر بحـالـة من الابتهـاج والسعـادة. يصلان في وقت افتتـاح الكازينـو. يكون المكـان خالياً والعمال ينظِّفون بقايا سهرة الليلة الماضية. يتذكران معاً وفي وقت واحـد أنهما لم يلتقيـا بالليـل أبداً. النهـار جزء من لقاءاتهما.

الدخان والـروائح الخـارجة من المـطبخ تؤكـد أن العمل اليومي بدأ منذ لحظات. يعـرفه العـاملون في الكازينـو ولهذا يتـركونـه فترة من الـوقت قبل أن يسـألوه عمـا يشرب أو عمـا يأكل.

التـلاقي لقاءان، في الجـزء الأول من اللقـاء يـرغب في الكلام. ولكن ما إن يأتي الجزء الثاني من التلاقي حتى يغرق في بحـار صمته ولا يستـطيع ـ بـل ولا يـرغب ـ في الخـروج منها أبداً.

في اللقـاء الأول، يطلب منها الكلام ويتكلم هـو ولكنـه

في اللقاء الثاني يصبح عاشقاً للصمت، يجلسان، يتذوقان للحظات عابرة طعم صمت أول اللقاء. يحاول الخروج منه. يطلب منها أن تتكلم. تسأله عن الكلام الذي يحب أن يقال. فيؤكد لها أن أي كلام يقال يخرجهما من حالة الصمت. تقول أنها تخاف فخاخ الكلمات، لو تكلمت لحسدت نفسها على ما هي فيه من نعم. بفضله هو بعد الله سبحانه وتعالى، فيقرر هو الكلام. يحكي قصصاً ويروي حكايات تدور حول حاله قبل أن يجري له ما جرى، وإن كان لا يقول كلمة واحدة عما جرى. أما اليوم الذي جرى فيه ما جرى، فهو يصفه بكلمة واحدة: الكئيب.

طوال اللقاء لا ينظر سوى للبحر أو السماء، كلاهما أزرق، يستغرق في نظراته. يبدو أنه ينتظر شراعاً أبيض يأتي من بعيد تعبث به الرياح الهادئة.

دون سؤال، يقدمون له بعد الانتهاء من إعداد المكان عصير الليمون، يشربه وهو يحدثها باختصار عن مزايا فيتامين س. الطبية والصحية. وبعد ساعة ونصف من عصير الليمون يقدمون له القهوة السادة ولها الشاي ومعه السكر وفي موعد الغذاء يقدمون الطعام الذي لا يتغير أبداً. كفتة السمك وكميات كبيرة من السلاطة الخضراء والطحينة والأرزّ المطهو بالزيت على طريقة سكان السواحل البعيدة.

عندما ينتهون من وضع الطعام أمامهما، يقرب يديه من الطعام. يشعر بالهواء الدافىء المتحرك فوقه، يدفىء يديه على هذا البخار. يفعل هذا في الأيام الباردة والدافئة على حد سواء.

شهد عرفت اليُتم منذ يومها الأول. أتت إلى العالم لتجد أن والدها قد ترك العالم قبل مجيئها إليه وأمها تزوجت بعد فترة من رجل آخر. ولم تستطع الحياة معها. البنت كبرت في السن وأمها خافت عليها من نظرات زوجها وخافت على نفسها أيضاً من شباب البنت التي كبرت فجأة وخرطها خراط البنات.

البنت ليست جميلة ولكن فيها ما يشد الرجال إليها بشكل غير عادي. والزوج عينيه زائغتين ويحب البنات الصغيرات. دونما متاعب أرسلتها إلى أختها في بلدة قريبة. لم تفهم شهد الموقف جيداً عندما سافرت بها أمها إلى خالتها. سألت أمها عن السبب، فقالت لها أن نظرات زوجها تتدحرج على جسمها بشكل فاضح. قالت شهد إنه في مكان والدها وأنها لم تشعر بذلك منه. الأم قالت أنها تفهم أكثر من الإبنة. وأننا نعيش آخر أيام العالم. وكل شيء ممكن الحدوث في هذا الزمان العجيب. وأنها فعلت ذلك لكي تحمي إبنتها من المجهول.

بقيت في بيت خالتها وزوج خالتها. وبعد تعليم متوسط عملت ممرضة، أتى خطاب التعيين لها. من المفروض أن تعمل ممرضة في البحر الأحمر. قالت أنها هنا تعيش في الغربة، ما دامت ليست في بيت أهلها فهي غريبة. سيان إن كانت في قرية قريبة من أمها أو في البحر الأحمر. ما دامت بعيدة عن حضن أمها. حضن الأم الذي تمنحه الآن في كل ليلة لرجل غريب. فكل الأمور عندها سواء. ولكن خالتها قالت أن البحر الأحمر على شمال السماء وأكدت أنها ستسعى من أجل نقلها.

أخذتها إلى قريب لها، كبير ويستطيع فعل كل شيء، لم تعرف حتى اسمه. قابلتاه في مقهى، كان يجلس فيه ناظراً إلى الناس في الشوارع، أخذ الاسم والوظيفة والدرجة الحالية وتاريخ التعيين والمكان الذي تعمل فيه والمكان المطلوب نقلها إليه. خالتها ذكرت اسم بلدتها وليس بلدة أمها.

أخذ كل هذه البيانات في ورقة كانت معه وهما واقفتان، لم يعزم عليهما بالجلوس والمقهى كان مليئاً بالرجال. كله عالم من الرجال. قال لخالتها وهو ينظر إليها: إنه سينقلها من البحر الأحمر إلى البلد في ظرف شهر من الآن.

لاحظت لحظة انصرافهما من المقهى أنه دس في يد

خالتها شيئاً ما. رأته بعد ذلك مبلغاً من المال ولاحظت أيضاً أنه لم يقف عندما سلم عليهما لحظة الوصول، ولم يقف وهو يسلم عليهما مودعاً. قالت أن السبب في ذلك ربما كان نوعاً من كبر النفس. خالتها قالت أنه كبير وما دام من الكبار هل من المعقول أن يقف لهما؟ في طريق العودة، قالت خالتها أنه ما دام قد وعد فمن المؤكد أنه سيفعل وأن خدماته وصلت إلى كل من يعيش في البلد.

تأخر النقل، فحضرت مع خالتها مرة أخرى. لم يكن أمر النقل هو الذي يعنيها بشكل أساسي ولكن السفر إلى مصر كان متعة المتع بالنسبة إليها. قالت لنفسها أن البحر الأحمر وبيت خالتها سواء، هي في كل الأحوال غريبة، ربما كان السكن الداخلي في البحر الأحمر أفضل من بيت خالتها، لا خلاص لها إلا في بيت يخصها وحدها، تكون هي صاحبته وهذا لن يحدث إلا بالزواج.

سألت نفسها، وأين هو الزوج في الزمان الصعب الذي تعيش فيه، بينها وبين الزواج صعوبات لا يقدر عليها ولا الأبطال في الحكايات السعيدة القديمة.

في المرة الثانية، كرر وعده، قال أن بعض الظروف الطارئة عطّلت صدور أمر النقل، ولكنه سيصدر، رحّب بهما

أكثر من المرة الأولى. وفي هذه المرة نظر إليها ـ دون خالتها ـ وحرك عينيه وقال أن راحتها أهم عنده من راحته هو نفسه، وأنه لن يعرف طعم الراحة ما لم ينقلها إلى البلد، وابتسم.

كانت المرة الأولى التي يبتسم فيها. وكانت أسنانه بيضاء، ذكّرتها بأسنان الأطباء الشبان الذين تعمل معهم. هذه المرة لم يمد يده بمبلغ منه إلى خالتها، شتمته الخالة بعد الانصراف فتحملت هي مصاريف السفر في الذهاب والعودة بل ودفعت ثمن الغذاء واشترت بعض الفاكهة ولوازم البيت من جيبها، فعلت هذا في صمت، دون أن تطلب خالتها ودون أن تعرض هي.

تأخر النقل فأرسلتها خالتها في المرة الثالثة بمفردها، وصفت لها المكان الذي توجد فيه المقهى، وفي هذه المرة فكّر في أن يدعوها للجلوس، واعتذر لها بأن المكان لا يصلح. قال لها ملاطفاً أنه لو كان يعرف بحضورها بمفردها لجلس في انتظارها في مكان يمكنها الجلوس معه فيه فضحكت هي قائلة أنه لو فعل وغيّر المكان لما اهتدت إليه لأنها لا تعرف طريقة للاتصال به سوى هذه المقهى.

جالساً فوق الكرسي قابلها وجالساً فوق الكرسي ودّعها ولكنها لاحظت أنه يركن عصا بالقرب منه كانت موجودة في

المرات السابقة ولكنها لم تربط بينه وبينها ولاحظت أيضاً أن حال قدميه غريبة، قدم مفرودة على آخرها لا يتمكن من ثنيها وقدم أخرى طبيعية جداً.

نقلت إلى المجموعة الصحية الموجودة في بلدة خالتها فسألت نفسها: هل أخَّر النقل حتى تحضر له بمفردها بدون خالتها فيشعرها أن الخدمة مقدمة لها دون الخالة؟

تسلمت عملها في المجموعة الصحية القريبة من بيت الخالة، وألحّت عليها خالتها بضرورة الذهاب إليه في مصر وشكره على الخدمة التي قدمها إليها. سعد بحضورها وحدها للمرة الثانية. تساءلت من جديد: هل اتفق مع خالتها على ذلك؟

قال لها، إنه من المستحيل أن تحضر كل هذه المرات إلى مصر دون أن يعزمها، قام معها، اكتشفت أن الرجل له قدماً صناعية. مشيت خارجة من المقهى فناداها فهو يمشي ببطء طلب منها أن تتعود على المشي معه، لأنهما قد يمشيان كثيراً مع بعضهما بعد ذلك. رنَّت الكلمة في أذنيها مع دلالاتها كلها وإن كانت قد تصنَّعت عدم الفهم، كانت المرة الأولى في حياتها التي تمشي فيها مع رجل عاجز. المقهى الذي يجلس فيه يقع بالقرب من محطة السكة الحديد. إتجه معها إلى مطعم فوق سطح عمارة عالية، عالية جداً. صعدا

بالأسانسير الذي كانت تركبه للمرة الأولى في حياتها، ضحك بصوت عال وهو يشاهد الدهشة المتسعة في عينيها، شرق من كثرة الضحك، قالت له أن هناك من يتكلم عنك الآن رد عليها أنها المرة الأولى منذ سنوات التي يضحك فيها بهذه الصورة. أكمل أنها المرة الأولى التي يكركر فيها بالضحكات.

كان المطعم فوق سطح العمارة العالي مثل الخص فوق الجبال البعيدة. سعدت برؤية السيارات مثل علب الكبريت والشوارع مثل مساقي المياه في حقول قريتهم والبشر مثل النقط الصغيرة التي لا يستطيع الإنسان تبيُّن ملامحها من بعيد.

تناولا طعام الغذاء، جلس معها بمفرده لأول مرة، بعد الجلوس والنظر إليها بهدوء بعيداً عن صخب الشارع والحياة التي أصبحت بعيدة عنهما تماماً. رفع حاجبيه من الدهشة، قال لها، أنه ما كان يتصورها جميلة بهذا القدر غير العادي سألت نفسها عن هذا الجمال غير العادي: أين هو؟ وإن كان موجوداً فلماذا لم يحضر إبن الحلال الذي ينقذها من الحال الذي تعيش فيه.

قال لها، أنه كان يبحث عنها منذ سنوات فالجمال مسألة نسبية، وهي في نظره الآن أجمل من على الأرض، ولن

يسمح لأي قوة على الأرض من الآن أن تبعده عنها. قال لها أنه يتمنى لو قابلته على انفراد بعد ذلك بشرط ألا تعلم خالتها بأمر هذه اللقاءات. همست لنفسها أن دور الخالة انتهى عند حدود التعارف والآن ليس من المطلوب أن تكون موجودة أصلاً.

قال لها أن كل جزء من جسمها بمفرده جميل وغير عادي، ولكن ربما عند جمع هذه الجزئيات مع بعضها لا تبدو بنفس هذا القدر من الجمال.

قالت لنفسها، أن الرجل قام بعمل دراسات عن جمالها وهي لا تعرف، شعرت لأول مرة بنشوة غامضة. سألها عن مرتبها الذي تحصل عليه من عملها. قالت إنه ثلاثون جنيهاً، تساءل كيف يعيش الإنسان بهذا المبلغ في ظروفنا الراهنة، لم تقدر على الرد عليه. قال أنه سيساعدها، طلب منها أن تضرب هذا الرقم في اثنين وبعد أن فعلت قال لها أنه سيدفع لها ستين جنيهاً في الشهر وكل المطلوب منها أن تحضر أول كل شهر من أجل الحصول على هذا المبلغ.

فتحت فمها من الدهشة لتسأل: ولِمَ يفعل هذا؟ طلب منها ألاَّ تسأل الآن عن أي أمر من هذه الأمور، أن تكتفي بالصمت فهو أفضل من كل الكلمات. استدار السؤال بداخلها، مقابل أي شيء يدفع هذا المبلغ الضخم لها،

ولكن لا السؤال الأول ولا السؤال الثاني خرجا من فمها. تساءلت من جديد، هل اتفق الرجل على كل هذه الأمور مع خالتها؟

في طريق العودة إلى البيت قررت ألا تخبر خالتها، ولكنها في البيت فوجئت بخالتها تحدثها عنه، تقول أنه أفضل من شباب هذه الأيام، من يستطيع أن يتزوج منهم؟ من يحل مشاكل الشقة والجهاز ويواجه الخوف من الغد وعدم الاطمئنان للمستقبل؟ لا يوجد شاب واحد في البلد الآن لا يستعد للسفر إلى الخارج ومن يعود ينفق ما معه في أيام معدودة ثم يستعد للسفر من جديد.

حتى في القرية الصغيرة، التي يعيشون فيها، الكل لا حلم له سوى في السفر، من قبل ما كان أحد في البلد كلها يفكر في ترك البلد والأرض والناس، الآن من يمشي في حواري البلد، كل من يقابله يحمل جواز سفره في يده، لا أحد يعرف ماذا أصاب البلد ولا إلى أين تسير. أما هذا الرجل فهو عاشق يقدم كل ما لديه دون أن يكون له أي مطلب.

نظرت إلى خالتها وهي لا تفهم الأمر بالضبط، هل تعطيها جزءاً من المبلغ عندما تحصل عليه حتى لا تتعب نفسها معها؟ خافت أن يصبح هذا المبلغ حقاً لخالتها وقد

تتطور الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك، فكَّرت طويلاً في الأمر دون أن تصل إلى نتيجة ما.

تكررت اللقاءات، في البداية لم يكن له أي مطلب منها ولكنه - ومع مرور الوقت - بدأ الحديث عن بعض المطالب البسيطة منها، كانت مقدمات المطالب. وكانت سهلة ويمكن عملها بسهولة، ولكنه وصل بعد ذلك إلى المطالب الأساسية بالنسبة له. طلب منها بوضوح ألا تتزوج وأن تبقى له وسيبقى هو لها طوال عمره وسيوصي لها بعد انتهاء العمر بكل ما يملك فليس له أحد في هذا العالم.

وافقته دون أن تنطق، وإن كانت قد تذكرت وهي تسمعه ما كانت أمها تقوله عن البيوت الوقف والأراضي البور والنخلة الذكر والمرأة العقيم. حاولت أن تجد العزاء في جانب من كلامه. فسَّرت الكلام على طريقتها الخاصة. حاولت أن تقنع نفسها أنه ما دام قد طلب منها عدم الزواج فهو ينوي الزواج منها وإن كانت الفكرة لم تتضح في ذهنه بعد. وربما كانت هناك بعض الصعوبات أمامه. وقد يكون في حالة انتظار للوقت المناسب حتى يطلب منها الزواج. ولكنه لم يطلب الزواج منها أبداً.

ـ يكفي ما نحن فيه.

قريتها هي بلد المحبوب بالنسبة له.

رددت بعده :

ـ بلد المحبوب .

أكملت في حزن :

ـ ولكن من قال أن القرية التي أعيش فيها هي بلدي ومن يؤكد أن مدينتك الواسعة هي بلدك .

قال لها :

ـ لم يعد أمامنا سوى أن يخلق كل منا بلده الخاص به وينتمي له .

قالت بعده :

ـ يخلق كل منا بلده .

قال وكأنه يحدث نفسه :

ـ أزمة أو مأساة أو حتى فكاهة ، ستكونين أنت وطني وأتمنى أن أكون وطنك .

سألته :

ـ والوطن الأم ، تلك الديار ، ذلك البر ، كل هذه الأراضي .

لوَّح بيده بيأس :

ـ دعينا من هذا .

حاولت تغيير الموضوع ، قالت :

ـ الأغنية الشهيرة تتكلم عن الوجـد والبعاد الذي يكـوي العاشق.

قال لها وقد فاض به الكيل:

ـ أتمنى أن يحدث هذا لنا.

لم تفهم هي حكـاية أن تكـون هي وطنه وأن يكـون هـو وطنها.

قال لها:

ـ أنت لا تعـرفين معنى أن يعيش الإنسـان معلقـاً في الفراغ، لا حبال تشده إلى أعلى ولا أرض يقف عليها.

أكمل بعد أن استراح من تعب الكلمات:

ـ ذلك هو حالي.

قالت أن كلامه أسلمها إلى متاهة.

قال لها:

ـ الديار تخلّت عن سـاكنيهـا، أدارت ظهـرها حتى لمن فقدوا كل شيء ـ حتى رجولتهم ـ دفاعاً عنها. هذا هو كـل ما هنالك.

عاد إليها والضنى يشده إلى عوالم بعيدة:

ـ نعود إلى العشق والمحبة.

قال من جديد:

ـ أليس جميلاً أن يكون للإنسان محبوب؟ وأن يكون المحبوب في بلد غير البلد وأن تهفو النفوس إلى بلد المحبوب وتشتاق إليه ويشتاق إليها وتعد الأيام وتعد الليالي باحثة عن يوم اللقاء.

لم يكن قد رأى البلد الذي جاءت منه منذ سنوات، ومنذ أن جرى له ما جرى وهو لا يستطيع السفر إلى هناك. كيف يسافر إنسان بقدم صناعية إلى ملاعب طفولته وأماكن جري الصبا؟ كيف؟ كيف؟ ما في ذهنه عن البلد صور بعيدة، غائمة في ضباب الذكرى، أجزاء من صورة ناقصة. أما هي فلا تعرف عن مصر، المدينة التي يعيش فيها، ذلك المخزن المسكون بملايين البشر، لا تعرف عنها سوى المحطة وبوفيه السكة الحديد وموقف أحمد حلمي والطريق من المحطة إلى المعادي ومن المعادي إلى المحطة. هذا هو كل ما عرفته عن بلد المحبوب، ومع هذا عندما سألها إن كانت تعرف مصر قالت إنها مرسومة في حبة القلب.

قال من جديد:

ـ ما أجمل أن تكون هناك ديار للعشق والمحبة.

قال لها أن ذلك يخفف عن الإنسان كل ما يلاقيه في حياته من المتاعب والهموم.

قال أن البعاد دواء يقوّي الحب والزواج أسوأ نظام اجتماعي عرفه التاريخ.

ـ إنه مقبرة الحب.

لم تفهم باقي الجملة لأنه قالها بسرعة شديدة وبان عليه الاضطراب لأول مرة، وإن كانت سعادتها لا تقدر ولا توصف لأنه تكلم عن الزواج لأول مرة منذ أن عرفته. رددت هذا الكلام وهمست لنفسها أنها ستكون مجنونة لو فكّرت في الزواج من هذا الرجل.

يجلسان معاً، والمشهد الرئيسي في القصة كلها هو جلوسهما هكذا ومن الصعب وصف المشهد بما يناسبه، إن السؤال هو: كيف يجعل الإنسان الكلمات تمتص المرئيات والأشياء والناس؟

يجلس الآن أمامها، يتذوق طعم اللقاء، يحب انتظار لقاءات شهد ويتساءل: هل يتغير مذاق الحياة لمجرد وجود شخص آخر؟ ينظر إلى النيل، يفكّر، للنيل مواسم، الفيضان الذي توقف والتحاريق المؤكدة. وللنيل حالات: الجفاف الذي أصبح كثيراً وبقايا كل المدن التي يحملها معه أثناء مروره عليها. وله حالات أخرى. وشهد، آه من اسمها الصعب، شهد، إنه يريد أن يمسك بأنفاسها، تلك الأنفاس الذاهلة المنتشية.

اللقـاء لقاءان، في الجـزء الأول منه يـرغب في الكلام، ولكن ما إن يأتي الجزء الثاني من اللقاء حتى يغرق في بحـار صمته، ولا يستطيع، بل ولا يرغب، في الخروج منها.

في اللقـاء الأول يطلب منهـا الكلام ويتكلم هـو، ولكنـه في اللقاء الثاني يصبح عاشقاً للصمت.

يقول لها:

ـ إن الإنسـان يتعلم الكلام في عـامين. تبدو سـرحـانـة ولهذا ينقر على المنضدة وهو يكمل الجملة:

ـ ولكنه يتعلم الصمت في عشرين عاماً.

يتـرك لها بعض الـوقت لكي تستوعب المعنى ثم يشـرح لها:

ـ هــل رأيت قيمـة أن يصمت الإنســان وألا ينـطق ولا يتكلم أبداً.

لا تـرد، ويظل سؤالـه معلقاً في الهـواء المرتعش بينهمـا دونما إجابة.

ذات مـرة حضرت إلى مصـر صباحـاً وفي يـوم غيـر يـوم الجمعـة اليتيمة، كـانت في مهمة عمـل، فكّرت في رؤيتـه، لأنـه كان لـديها وقت فـراغ، ذهبت إلى المقهى الذي يجلس فيه يومياً، إتجهت إلى المقهى وهي تفكر ألا يجب أن تعـرف

مكان سكنه وظروف حياته؟، لماذا يبدو وكأنه لا ماض له وكأنه وجد في هذه اللحظة فقط؟

فكَّرت في الحديث معه حول هذه الأمور. قالت لنفسها، إنه عندما يراها تدخل المقهى سيصاب بدهشة ولهذا ستأخذ راحتها في الكلام، قبل أن يتمكن هو من الخروج من دهشته. كان يجلس في نفس مكانه الذي كان يجلس فيه عندما حضرت إليه لأول مرة مع خالتها. قابلها بفتور وطلب منها الانصراف فوراً. وألا تكرر ذلك مرة أخرى، حدد لها مواعيد وأمكنة اللقاء وهو لا يحب عبث الصبية هذا. إنه مشغول وسيحضر له أناس بعد قليل، سيتكلمون في أمور لا يحب أن تكون هي طرفاً فيها.

إنصرفت حزينة، مشت قليلاً ولكنه ناداها فعادت له فرحة، سألها إن كانت هناك مشكلة ما تعاني منها. قال إنه كفيل بحل أي مشكلة فوراً، هزَّت رأسها نفياً والدموع تداعب جفون عينيها. سافرت.

في اللقاء التالي فكَّرت في إحضار زميلة معها، فالطريق طويل والسفر منفردة يسبب لها حالة من الملل، وفي العودة تحدث لها حالة من الصداع والتعب. عرضت عليه الفكرة، قالت أن لها زميلة هي كل سرها في هذا العالم ستحضرها معها.

غضب من مجرد طرح الفكرة، وغضب أكثر إن كان هناك ثالث يعرف سرهما معاً. قال أن السبب الحقيقي في هذا التفكير أنها شعرت بالملل منه، والملل هو أول أعراض النهاية لأي علاقة عاطفية.

أكدت له أنها تتمنى لو قضت العمر كله معه، ولكن المشكلة أنها قبل وبعد اللقاء معه لا يتصور أبداً ثقل الوحدة عليها. واعتذرت له عن مجرد تفكيرها في هذا الأمر.

في الشهر الأول، بعد اللقاء الأول في المعادي، اقترب منها زميل في العمل، معاون المعمل في الوحدة الصحية، كانت تخرج من الباب في نفس لحظة دخوله، احتك الجسمان، توقفت هي لحظة، أحست بملامح وتضاريس جسمه تترك بصمتها على جسمها المشتاق، طالت وقفتها واهتزَّت أعماقها بالرغبة، كادت أن يغمى عليها من تأثير رائحة ودفء الرجل، ذلك الكيان من الدم واللحم، القريب منها البعيد عنها، المتاح لها المحرَّم عليها، شمَّت رائحة عرقه ورغم نفورها من رائحة عرق الآخرين فقد تمنت لو شربت قطرات من عرقه. زاغت نظراتها وأسرعت دقات القلب واستندت على الباب حتى لا تقع، تمنت لو أن الوقت كان ليلاً ولو أن المرضى ما كانوا يحيطون بهما من كل جانب، إذن لاستمرَّا على هذا الوضع لآخر العمر ولكن

النهار له عيون والناس لها عيون وضوء النهار فاضح .

فكَّرت في الجمع بينهما، هو في مصر وزميلها في العمل معها هنا في البلد. ترددت، لم تحسم الصراع الهادر بداخلها.

في اللقاء الثاني، جلست معه قلقة لم تسترح حتى للكرسي الذي كانت تجلس عليه، غيَّرته أكثر من مرة، كانت نظراتها معلقة بالرجال، بالآخرين، حتى بالجرسونات الذين يحضرون الطعام، سائق التاكسي، منادي الموقف، سائقو السيارات التي ركبتها في تنقلها من القرية وحتى الكازينو، لم تنظر له طويلاً، كانت تشيح بوجهها عنه وهي تفكر، لِمَ لا يكون هذا الجالس أمامها رجلاً مثل كل الرجال الآخرين وعندما يمر رجل عليها تشتبك نظراتها معه.

قال لها أنه يشم رائحة رجل آخر تنبعث من داخلها، فزعت، خافت، قال لها أن جسمها تفتَّح وأن ذلك معناه أنه يطلب الرجل الآن. نظر إليها. عيناه تبدوان مثل خطين من النيران تحدقان فيها بعنف، لامست نظراته وجهها كأسلاك كهرباء عارية. النظرات مستمرة ولا تنكسر. قالت لنفسها، إن الرجل يبدو أن سره سابقاً. يعرف حتى ما يدور في النفوس، يعرف ما يجري في البلد البعيد. قررت أن تغلق هذا الباب في انتظار الجالس أمامها.

علّمها التدخين، وكان يحضر لها السجائر معه، وعندما تعوّدت على التدخين كانت تشتري السجائر من البلد خلال الشهر الطويل وإن كانت تشرب في البلد سراً أما في مصر فهي تشرب الدخان معه منذ التلاقي وحتى الوداع.

إشترى لها ولّاعة غالية الثمن وفي البلد علّمتها خالتها شرب نوع رخيص من الخمور. قالت لنفسها: إنهما يبدوان وكأنهما على موعد، ينفذان خطة واحدة وضعها ذلك الرجل القاسي والصموت.

وفي الليالي الطويلة جداً، تلك المساحات اللانهائية من الصمت ومن الظلام لا يكون هناك من عمل سوى الشراب والتدخين والحديث مع خالتها ومع زوج خالتها في البيت الريفي الرطب والمعتم.

مع مرور الأيام تهدل جسمها الذي كان مشدوداً مثل وتر القوس وبرزت شعيرات جديدة على الشفتين، كانت من قبل زغباً خفيفاً ولكنها الآن شارب. ضمر الجسم كله ما عدا الصدر الذي أصبح نافراً بمفرده فبدا وكأنه صدر مستعار من امرأة أخرى. والردفان اللذان كانا بارزين للخلف بصورة تجعل من يراهما أثناء سيرها أنهما قد يقعان إن هي أسرعت قليلاً في السير، وكان السؤال الذي يطرحه على نفسه كل من يشاهدها: كيف تحمل القدمين الرفيعتين هذا الجسد المنتفخ

من عند الصدر من الأمام والبارز عند الردفين من الخلف؟ كانت تخشى أن تتقوس القدمان مع مرور الوقت ويصبح نصفها الأسفل على شكل دائرة.

تساقط الشعر فاشترى لها شعراً مستعاراً من النوع الذي يحبه هو. تساءلت: أما لهذا كله من نهاية؟ خافت من النهاية التي تتمناها. فقد أحبت الرجل وكرهته لحد الجنون، أحبته لدرجة الذوبان فيه والتلاشي في عالمه والعوم في بحار نظراته الصامتة والعاجزة. وكرهته في نفس الوقت لدرجة الرغبة في قتله. تتساءل وهي جالسة معه في ذلك المطعم البعيد في المعادي: كيف يمسك الإنسان باللحظات السعيدة النادرة في حياته ويبقيها أطول فترة ممكنة ولا تولي هاربة منه؟

يخرجها من لحظات التأمل، يسأل، ولماذا سموك شهد؟ وقبل الإجابة يتساءل هو من جديد: هل سموها شهد لأن لون عينيها مثل الشهد الرائق؟

وتفيض بها تلك الرغبة الحارقة في البوح والكلام ولكنها تصمت تتمنى لو يمسك بها بين يديه تقول لنفسها: الكلمات رقيقة وعذبة ولكن الفعل لا وجود له.

تقول معلقة على الحال كله:

ــ إن الجو كئيب.

بوح العشاق



ـ أليس لهذا الرجل سرير؟

- والسرير لا يحتاج إلـى إمـرأة تدفئـه ليلاً وتشيع فيه البهجة والسرور نهاراً؟

ـ ألا يرغب هذا الكيان الآدمي في الفعل؟

كم تمنت وكم تتمنى شهـد أن يطلبهـا في فراشـه، ومـع هـذا لم يفعـل بـل ولم يلمـح لـذلـك، حتى اللمسـات التي تحدث عفواً بين رجـل وامرأة يتجنبهـا. ويمر الأمـر وكأنـه لم ينتبه لها. كانت في عذاب فهي تخاف الاقتراب من أي رجل آخر، لو حدث هذا لن تستطيع الاقتراب منه. ربما لا تحاول رؤيته بعد ذلك وهي مشدودة له بآلاف الخيـوط غير المـرئية، حتى التعـاسـة يتعـودهـا الإنسـان ويشتـاق لهـا بعـد فتـرة من الوقت.

تسأل نفسها، هل أحبَّته؟ إنها نفسها لا تعـرف وإن كانت تنتظر التلاقي معه بحرارة من نـوع خاص، تسـأل نفسها وهي في الطريق إليه، أيهما ينتظر التلاقي بحرارة: قلبها أم جيبها؟

القلب الخالي، أم الجيب الذي أصبح هذا المبلغ ركناً أساسياً من ميزانيته الشهرية. أما جسدها. فتلك قضية أخرى.

قبل التلاقي، تتخيل شهد النجوى الصامتة وهمسات العشاق وحديثه وحديثها اللذان هما نوعان من الحديث مع النفس. تتمنى أن تركض في الشوارع الخالية. تنظر إلى حاله وتدرك أنها ستركض بمفردها. إنه لن يركض أبداً وإن تمكن من الركض في أي يوم من الأيام. وهذا نوع من المستحيل. فأين هي الشوارع الخالية؟ الناس تأكل بعضها من الزحام، يمكنها الركض وهو جالس يشاهدها. آه لو سافر معها إلى قريتها. إن ذلك يبدو مستحيلاً.

يبدو النهار في منتصفه الآن، والضوء المصفى الذي يتسلل إليهما عبر الأشجار يرسم بعض الأشكال هنا وهناك. وكل منهما يحاول قراءة هذه الرسومات بالطريقة التي تعجبه.

يبدو جالساً أمامها. خائفاً من أن تعرف أنه، أن تعرف عنه، جملة ولكن بدون نهاية. دائماً يترك الجملة معلقة بدون نهاية. يبدأ الكلمة الأولى ويتوقف بعدها.

أن تعرف أنه.

هل تعرف أنه؟

لا يكمل الجملة ولا تفهم شهد ما يمكن أن يقال بعد هذه الجملة، هو وحده الذي يفهم الباقي وهو وحده الذي يشعر بالسعادة لأنه معها بمفرده كان لا يحب الآخرين، الناس تجلب الهم معها، هكذا كان يقول دائماً. الآخرون يسببون حالة من الكآبة لا يستطيع بسببها البقاء معهم فترة طويلة من الوقت. كان التمشي في الشارع ومراقبة الآخرين هواية بالنسبة له وبعد أن جرى ما جرى، والذي لا يحب أن تعرفه شهد أصبح الجلوس في المقهى متعته الوحيدة، حيث يشاهد الناس وهم يتحركون في كافة الاتجاهات ولا يتحرك منه سوى عيناه معهم. وعندما يتعب من كثرة الجلوس في المقهى، وعندما يصاب بحالة من الدوار بسبب كل هذه الحركة أمامه، يقف في مكانه بعض الوقت، يجد سعادة وهو واقف والدنيا تجري وهو واقف كما هو.

يقول لنفسه: إن المتعة الوحيدة بالنسبة له في بعض الأحيان هي أن يتحرك، الحركة فقط. ومعنى الحركة هو الانتقال من مكان إلى آخر، القدرة على استعمال القدمين بحرية. الآن لم تبق له سوى تلك الحرية في استعمال أجزاء أخرى من الجسم، يحرك عينيه، يتجول في ذاكرته، يحرِّك بعض أجزاء جسمه.

تسأله عن الشهر الذي مضى، كيف قضاه. لديه كلمات

يرد بها كل مرة:

ـ ماشية الأمور.

في بعض الأحيان يغيِّر من كلمات الجملة فيقول:

ـ ماشي الحال.

تلفّ وتدور، تسأله عن أخباره الخاصة، وأخباره العامة، عن الحوادث الهامة التي وقعت له خلال هذا الشهر الطويل، أربعة أسابيع بالطول وبالعرض، وفي كل أسبوع سبعة أيام وسبع ليال وفي اليوم اثنتي عشرة ساعة وفي الليلة اثنتي عشرة ساعة أخرى.

تقول له، أنه يفصلهما عن بعضهما سبعمائة وعشرين ساعة من الزمان والساعة فيها دقائق والدقائق مكونة من الثواني الكثيرة. وفي جزء من الثانية يمكن أن يحدث الكثير من أمور العالم. تقول له، أنه في اللحظة الواحدة يخرج أناس إلى الوجود ويختفي آخرون من فوق وجه الأرض وتقوم حروب وتنتهي حروب أخرى وتنفض معارك وتقع حوادث. يقول هو، أنه في جزء من الثانية قد يهزم أكثر الرجال رجولة في معاركهم وعند العودة إلى الأوطان التي كانت وراءهم، يكتشفون أنهم خاضوا جزءاً من المعركة فقط. تعاملوا مع وجه واحد من وجهيّ عملة المعركة. نسوا أن العدو كان من الخلف وكان من الأمام، وهو حارب العدو الذي في الأمام

فقط، والآن، الآن فقط عليه أن يتعامل كل يوم مع عدو الداخل.

تسأله من جديد عن أخباره، يقول لها أنه ليست لديه أخبار مثيرة ويسأل نفسه:

ـ ماذا تريد منه هذه البنت بالضبط؟ هل يقول لها أنه يتدلى من نوم إلى نوم، ويستمر هكذا حتى يصيبه الصداع؟ هل يقول أن الوحدة تحفر الأخاديد بداخله بفأس لا تعرف الرحمة؟ هل يؤكد لها أنه يرى نفسه في الأحلام المزعجة، في تلك الليالي المرهقة بأنه يبدو معلقاً فوق هاوية؟ هل يشرح لها حاله بأكبر قدر ممكن من الصدق؟

إنها مأساة عندما يتفتت جسم الإنسان ويخونه ويتخلى عنه وهو في منتصف العمر. هل يقول لها أنه يحلم بطريق طويل، بدون نقطة بدء وبدون محطة وصول وعندما يسير في هذا الطريق يجده مليئاً بالحفر القديمة. يكتشف أنه من المستحيل السير في الطريق ما لم يردم حفره. يبدأ في ردم الحفر القديمة. يبذل جهداً خارقاً لا يعرف مصدره، يقول لنفسه إنه جهد الأحلام. وعندما ينتهي من ردم الحفر القديمة، يكتشف عدداً لا ينتهي من الحفر الجديدة التي لا يعرف متى وجدت أصلاً. كانت بعض التفاصيل تختلف في

الحلم من ليلة لأخرى ولكن الجوهر يبقى في كل الأحوال واحداً.

ولكن حلمه وشهد كان له مذاق خاص. جاءه في الليل الذي لم يكن مرهقاً بعد اللقاء الأول، كان هو وشهد بمفردهما، لا يوجد معهما كائن واحد، في جزيرة بعيدة ومهجورة ومعزولة عن العالم بكل ما فيه ومن فيه والسماء منسدلة عليهما وعند مدى الشوق يراها. تصافحها عيناه، تلبس فستان الزفاف وعلى رأسها طرحة العرس، خيمة من اللون الأبيض الشفاف تتحرك ببطء، تقترب منه، يلمسها بيديه، ينزلها في النهر العذب، يغطسها ويخرجها من الماء بصعوبة على يديه. الثوب المبلل يبدو ملتصقاً بجسدها الجميل، وكافة تفاصيل الجسد تبدو واضحة من كثرة التصاق الثوب بها. يتحسس جسدها عبر الثوب الذي يبدو وكأنه جزء من الجسد، يرفع الثوب عن الجسد، يتحسس الجسم المبلل ولكنه يكتشف أن الحرارة تبخَّرت من الجسم. إنه جسد بارد متجمد، يهزها، يكتشف أنها ماتت، غرقت منه وهو يحاول أن ينقعها في الماء وأن يغسلها كلها مرة واحدة. يأخذ قليلاً من الماء إلى فمه، يتذوق الماء الذي ينزُّ من جسدها، يكتشف أنه ماء مالح. لقد غطسها في بحر غويط لا قرار له ولم يكن نهراً مياهه عذبة كما تصور من قبل. إن النهر

ضحك عليه. يقول قبل أن يصحو من الحلم أن النهر أصبح بحراً وماءه العذب أصبح تلالاً من الملح. إنه نهر الملح. من يصدق أن هناك نهراً من الملح؟

يرغب في الكلام معها، في إخراج شحنة الأعماق، إنه رجل يريد الهروب من الحفرة التي يحملها في داخله. ينظر إلى الهاوية، إلى العمق الرهيب الذي تحته. يتساءل: هل يستطيع الإنسان الوصول إلى قعر فراغه؟ هل يمكن؟

يتكلم معها عن اللقاء الأول، النظرات الأولى، الكلمات الأولى، الانطباعات الأولى، مليحة الصورة، داكنة الوجه. وجه شيطاني يطل عليه. عينان تلمعان بالحيوية. تضجان بالطاقة والحضور النسائي المفعم.

تكلمت معه للمرة الأولى، أسنانها تومض، أسنان ذهبية، آه من الدفء وآه من البريق الذي تشيعه حركتها في الفم. شيء مخيف يطفو على سطح الكلمات.

ضحكت، كانت الضحكة الأولى، شعر أن الضحكة مرسلة من حبة قلبها، ضحكة صافية وكأن نكتة قيلت أو أن شيئاً عجيباً بهيجاً يوشك أن يحدث.

يقول لنفسه، إنه لم يشم في حياته كلها رائحة أنثى بهذا النفاذ. شهد فتاة ناعمة ملساء، مثل بطون الفئران التي تملأ

بيته، تقوم من مكانها تتحرك وهو ينظر إليها. كانت تبدو وكأنها لا تمشي وكأنها تخطو فوق السحاب. قدماها كأرجل الراقصات طولاً وجمالاً وعذوبة. ها هو ينظر إليها فيكتشف أنه يعانق الفضاء البعيد. سقف العالم نفسه حيث تسكن هي. ولكنه يعانق ذلك كله بعينيه العابستين المغبرتين أما عيناها فترشحان بالحب ويسيل منهما الود.

في اللقاء الثاني تمنَّت أن تلتقط صورة معه، بالقرب من النافورة التي يتطاير رذاذ مائها في الهواء، يغسل وجوه البشر ويستقر كحبات بللورية على ملابسهم. قالت له أن مكان النافورة ليس بعيداً والهواء حولها يبدو هواءً مبللاً، تريد صورة لهما وهما يقفان، أو يجلس هو وتقف هي مثل كافة الصور التقليدية للأزواج. قالت له أن رذاذ الماء سيغطي الصورة كلها وسيبقى في الصورة بعد ذلك ولن يجف أبداً.

قال لها: ما جدوى الصورة، تلك الورقة التي تصفرّ مع الأيام لدرجة أن الإنسان من الصعب أن يتعرف على نفسه في النهاية عندما ينظر في الصورة. صمتت شهد ولكن ما لم تقله أنها تكبر كل يوم. أن الشيخوخة المبكرة تزحف على وجهها وهي تريد تسجيل هذه اللحظات.

كرر رفضه، فقررت هي في صمت أن تصور نفسها في البندر الذي تصل إليه عند السفر إلى مصر. فكَّرت في الأمر

طويلاً. حاولت أن تكلِّمه من جديد. حاولت أن تقول له أن الموقف يزداد تعقيداً فالإنسان يتوق إلى استعادة لحظات السعادة، تلك التي تجري هاربة إلى الوراء ولو لمرة واحدة. لأنه بعد مرور هذه السعادات العابرة لا يتبقى سوى الخوف اللانهائي من فقدها.

يقول لها: أنه يحرص عليها وهي معه، ويحرص عليها وهي بعيدة عنه كما لو كانت مصنوعة من الزجاج. يقول لها محاولاً الخروج من الموضوع:

ـ هيا إلى النهر.

يستدير في جلسته، فيصبح وجهه مغموساً في الماء. تنظر معه.

يقول:

ـ ثابت وما أكثر المتغيرات.

وتمر سفينة بعيدة، شراعها ينطلق نحو السماء، كأنه يحاول الشراب من قلبها المعطَّر بماء الكافور، تمشي ببطء. ينظران إليها، تلتصق نظرات الأعين الأربع بشراعها الأبيض، الذي يبدو نظيفاً من بعيد. تبدو السفينة وكأنها جزء من حلم بعيد بعيد بعيد. تتماوج صورتها على تكسُّر موجات مياه النهر الهادىء، والمراكبي يجلس في مقدمة السفينة يكاد أن يقع

في النهر. بيده ناي يبدو أنه صنعه بنفسه، ينطلق منه صوت راجف مثل الزبد، يحلّق الصوت إلى ما بعد القدرة على الاستماع. يزحم مسافة النهر كلها، من الشاطىء الذي يجلسان عليه وحتى الشاطىء الآخر. يطق العزف في دماغها كأنه رجع الصدى البعيد. تنظر إليه، إلى الرجل الجالس أمامها. كم يبدو بعيداً عنها، ما أبعد المسافة التي تفصلهما عن بعضهما. عيناها رماديتان، صافيتان، يتجول فيهما مشروع دمعة، ترفض أن تتحول إلى دمعة مؤكدة.

يصلها الصوت من جديد، النغم الذي لا يصدق، يخشوشن جلد ذراعيها. ترتعش أوصالها. تخضل عيناها وترشح فيهما الدموع الهادئة. تحدث لها حالة من الشجن والأسى تقول لنفسها عندما تنزل قطرات الدمع على خديها أنها ما ذاقت طعم الحياة الحارة أبداً. تحاول انتشال نفسها من الجو الذابل، ولكن يواجهها كل هذا الاشتياق المتراكم بداخلها.

تسأل نفسها: هل يستطيع الإنسان أن يدفىء قلبه عندما يلتف الجليد حوله. تنظر إليه، تحاول الخروج من هذه الحالة، تراه كما تحب هي أن ترى وجهه، وجه الحبيب المصنوع من تدفق النور الأزلي، تكفكف الدمع، تتكلم، تهمس بأصوات الكلمات لدرجة عدم الاهتمام بمعانيها،

تعيش حالة من الكآبة العذبة التي تغيم عليهما. ينتبه عقلها للحظة. ثم يعود ليستغرق في الرقاد من جديد. الكلمات المغموسة بشهد الحرارة والاشتياق ردا على همسات الحبيب، الهمهمات المضطربة الألوان، الكلمات الطرية، الكلمات البعيدة، الكلمات الطروبة كالماء، الكلمات الهامسة كالخرير وهما مضطجعان على وشك الرقاد.

تغمض أجفانها على حلم الرقاد معه، الرقاد بجانبه، النوم تحته وهو فوق، فوقها. تفتح عينيها وهي تحلم، تصبح عيناها مستطيلتي الشكل. عيون وقحة، ضاحكة ـ للحظة ـ حتى بدون ذرة واحدة من الحزن، في عمق العين حلم الرقاد معه، تفيق من حلمها على الرجل الذي يداعب النيل بعينيه بعيداً عنها.

تفكّر في الحديث معه. في استعادته من ذلك الذي يحبه. ولكنها تشعر باليأس حتى قبل أن تتكلم. تلوذ بالصمت.

تعود إلى اللقاء الأول، اللقاء البكر، دقات القلب الأولى، قشعريرة الجسم، حبات العرق، الدموع في المآقي، أين الشباب والحب والشوارع المهجورة المغسولة بالصمت؟ المغطاة بطبقة من الكلام؟ طعم القبلة الأولى التي توقعتها وانتظرتها ولكنها لم تجيء أبداً، القبلة الأولى التي

تفوق كل قبلات العمر بعد ذلك.

قالت لنفسها، إن القبلة الأولى، لن تكون من شاب أخضر، صبي صغير، لن تتحسس زغب الشعر الأصفر النابت فوق شفتيه والذي يخلي مكانه بعد ذلك لشارب كثيف،لا قبَّلها الشاب الصغير ذو الزغب ولا الرجل الكبير ذو الشارب الخشن الذي يشوك شفتيها وخديها ويسبب لها حالة من الألم اللذيذ الذي يوصل بعد ذلك إلى الإغماء الذي تتمنى عدم القيام منه بعد ذلك أبداً.

آه من لحظة مواجهة الأمنيات التي لن تتحقق بعد ذلك أبداً. وعندما تسرق منا أيامنا وليالينا نكون قد تخلينا عنها. وتكون هي قد فقدت صلاحيتها كأمنيات لنا وأصبح تحقيقها يساوي عدم تحقيقها تماماً.

كم سمعت من زميلاتها في معهد التمريض عن القبلات. كم شاهدت بنفسها بالقرب من المعهد من يقبِّل ومن تقبَّل، كم أرقها في الليالي الطويلة صوت الهمسات والوشوشات تلك التي تسبق التقبيل وتلك التي تأتي بعده. كم عاشت بعين الخيال، لحظة التقاء الشفتين بالشفتين وتهامس الجسم مع الجسم ونجوى الأعين الصامتة التي تقول كل ما يعجز عن قوله بالكلمات. تفيق من أحلامها، تلك التي بدون نهاية، تسأل نفسها، لماذا تحاول الابتعاد عنه وهو

بر الأمان ـ ربما الوحيد ـ لها!

كانت تخجل من أمواله في البداية، والآن لا تتصور كيف تعيش بدونها. ولو أنه تأخر ـ في أي مرة ـ وهما في طريق العودة من المعادي إلى محطة مصر. في دسّ الأموال في يدها، لطلبتها منه. تتمنى لو أن لحظة دسّ الأموال في يدها تؤدي إلى تلامس الأيدي، ولكن الأوراق المالية هي التي تصل إلى يديها فقط وتنسحب يده بسرعة. أصبحت الأموال هامة لها، أوصلتها إلى مستوى في الانفاق والمعيشة لا يمكنها التراجع عنه أو حتى التقليل منه. تتصور لو أنه اعتذر عن الدفع في أحد الشهور وقبلت هي العذر لأوقعها ذلك في ورطة لا تعرف كيفية الخروج منها.

ليس أمامها من حل سوى الاقتراب منه أكثر وتلك مسئوليتها هي. سألته في محاولة لعبور المسافة بينهما، ألا يحب رؤية جسدها عارياً ولو لمرة واحدة؟ تصورت أنه سيتهاوى تحت وقع السؤال وستبدو الرغبة واضحة في عينيه ويحمرّ وجهه من المفاجأة.

قال لها، ولماذا يتعبها بعملية التجرد من ملابسها إن كان يعرف جسدها جيداً، دهشت، قال لها، أنه سيذكرها الآن ببعض العلامات في جسدها، الشعر تحت الإبطين كما هو، هزّت رأسها موافقة والدهشة تسري في جسمها كدبيب

النمل، ومثلث الشعر بين الفخذين كما هو. حاولت من قبل أن تزيله ولكن خالتها أفهمتها أن إزالته مفروض أن تكون قبل الزواج مباشرة. وحتى عندما تصل إلى مرحلة ما قبل الزواج - وهو لا يتمنى أن تصل إليها أبداً - فإن بقاء مثلث الشعر يزيد الرجل إثارة، إنه يغطي ما تحته ويعطيه قدراً من الغموض اللذيذ فلا يراه الرجل أبداً حتى لو نام معها والأنوار مضاءة. وكل ما هو غامض مطلوب والغموض يجعل ارتباط الرجل بها أقوى. المهم أن تحافظ على هذا الغموض وأن توليه عنايتها.

قال لها، إن هناك مثلثا أحمر في أعلى الفخذ الأيمن ومجموعة من النقاط البنية الغامقة على نهديها، تزداد كثافة كلما اقترب مكان الحلمة وتقل كثافة كلما اتسعت الدائرة لتشمل النهد كله.

قال لها أن النهدين بدون حلمتين. مكان الحلمة في كل منهما غامق ولكن لا وجود لهما. ردت عليه وهي سعيدة. قالت: إن الحلمة تخرج إلى الوجود بعد رضاعة الطفل الأول.

وقبل أن تكمل جملتها قال لها أن ذلك مجرد احتمال وقد لا يحدث أبداً.

صاحت فيه لكي تغيِّر الموضوع :

ـ وكيف عرفت كل هذا؟

ذكَّرها بطلبه القديم :

ـ إتفقنا ألا تسألي .

كظمت غيظها وسكتت .

ما أفزعها بعد فترة من الوقت أنها بدأت تمل الأمر كله . تمنت لو أنه غير هذا النظام ولو لمرة واحدة ، كرهت كفتة السمك التي تأكلها في كل مرة وكرهت الجلوس في المعادي وكرهت صفاء السماء وانسدالها على الناحية الأخرى من النهر وبطء سير الحياة في نهر النيل . كرهت ركوب القطار من الزقازيق إلى القاهرة . تمنت لو حضرت مرة في الاوتوبيس وتمنت لو ذهبت من محطة مصر إلى المعادي على قدميها أو في المواصلات العامة ، كرهت الحضور يوم الجمعة ، يوم الشوارع الخالية ، شبه المهجورة والصمت والهدوء اللذين لا تحبهما .

تسأل نفسها عن الأيام التي تبدو المدينة فيها مزدحمة ، أين دفء الآخرين ورائحة عرق جلودهم؟ لم تر مصر حتى الآن ، لم تتسكع في الشوارع المزدحمة بأنفاس الناس والجو المثقل برائحة عرق الآخرين .

كثيراً ما سمعت عن المعاكسات الفاضحة في شوارع القاهرة، لم تسمع كلمة معاكسة واحدة مع أن حكايات زميلاتها البندريات عن معاكسات مشبعة بالعواطف فيها كلمات جنسية كثيرة تسمعها وتسأل نفسها، أين هذه المعاكسات التي حرمت منها؟ لم تعرف أي جزء من جسمها يلفت نظر الرجل أكثر، هو لا يحب المشي أبداً، يكرهه، وهي تعرف السبب الذي لا يمكنها الحديث عنه أبداً.

في إحدى المرات، لمحت له عن كل هذا الضيق الذي بداخلها. قالت أنها تحب لو أنه غيّر روتين التلاقي.

تساءل هو بدهشة:

ـ روتين؟

تراجعت بسرعة:

ـ أقصد النظام.

ابتسم وقال لنفسه:

ـ تلك مقدمات الملل مني أنا شخصياً.

قال إنه يشعر أن العلاقة بينهما أوشكت على الانتهاء إنه يعرف ذلك جيداً وكان يتوقعه. أقسمت له أنها لم تكن تقصد ذلك أبداً. وأغلقت الباب على هذا الموضوع ولم تعد إليه بعد ذلك أبداً.

كانت تخشى اليوم الذي يطرق حياتها فيه شاب من مثل سنها، يحبها وتحبه، يرتبطان معاً. كانت تسأل نفسها: ماذا ستفعل في هذه الحالة؟ إنها مربوطة لهذا الرجل بأكثر من رباط وعلى الرغم من أن همها هو المبلغ الذي يدفعه لها أول كل شهر فقد كانت هناك أمور كثيرة تشدها إليه، نوع من الشفقة؟ ربما. اشتهاء؟ لا تنكر أنها اشتهته كثيراً بخيالها، نامت بجواره، احتضنته، قبَّلته، قضت معه رحابة الليالي الطوال في الفراش. ولكن ذلك كله لم يتعد منطقة الخيال الذي أصبح محموماً من كثرة ما تعيش فيه. سألت نفسها أكثر من مرة، بعد أن تولي الأحلام: هل تؤثر القدم الصناعية على الجماع؟ هل تخبطها الأجزاء الصناعية في القدم فتتبخر النشوة من داخلها في تلك اللحظات المجنونة؟

في بعض الأحيان، وهي في البندر أو في المجموعة الصحية التي تعمل فيها، كانت تلاحقها نظرات بعض الشبان، تقول لها النظرات من بعيد أن هذا الشاب ربما كان الأمان والظل والبيت والجدار الذي تستند عليه في المستقبل وربما كان والد الطفل الذي تحلم به في كل وقت.

ومع هذا كانت تهرب فوراً من هذه النظرات، لا يمكنها الاستغناء عن رجل الجمعة اليتيمة. كانت تسأل نفسها: هل يمكنها الجمع بين الشاب ورجلها؟ هل يمكن أن يحدث

هذا؟ الرجل شحيح الكلمات وعندما يتكلم في بعض الأحيان فهو لا يقترب أبداً من موضوع الزواج، وهي من ناحيتها تتصور استحالة أن يتم هذا الزواج.

وتأتي الليالي، وتطفو الدموع، تشعر أنها ممتزجة بدمها ولحمها:

ــ لِمَ كل هذا؟

تسأل نفسها ولا تجد الإجابة وتسرح، تهيم في الصمت. عرفت اليتم مبكراً، اليتم الأول كان بوفاة والدها. واليتم الثاني أتى عندما طرق أبواب بيتهم رجل غريب. دخل من الباب إلى سرير والدها. نام في سريره وطلب أمها. وقف شعر رأسها من الذعر، من يوم وفاة والدها لم يجرؤ أحدهما ـ هي أو أمها ـ على الاقتراب من السرير، بدا مثل القبر. الذعر الذي اتسع في عينيها والأخاديد التي عرفت الطريق لأول مرة إلى وجهها الشاب المشدود الجلد جعلت أمها تدرك الأمر جيداً:

ــ تزوجته بالأمس.

أرملة وأرمل والزواج كان صامتاً. خرج السؤال من أعماقها مرتجفاً فيه حرارة دمها ولهفة عرقها:

ــ ولكن دم والدي لم يجف بعد.

حاولت أمها أن تنهي الأمر بقولها:
ـ انقضت فترة العدة.

تساءلت شهد:
ـ العدة!؟

رفعت الأم يدها. أظهرت خمس أصابع في يد وإصبعين في اليد الأخرى:
ـ سبعون يوماً وسبعون ليلة كاملة.

في الليلة الأولى، أخرجت أمها قميص نوم وردي، ارتدته على اللحم مباشرة وبانت أجزاء من جسدها متوردة ومتفتحة تطلب الذكر. قالت شهد، إن المرأة ـ التي كانت أمها ـ غسلت يديها من ذكرى الرجل الذي هو أبيها. وزوج هذه المرأة. عاشرها سنوات طوال، وهي تستعد الآن للنوم تحت رجل آخر. تستعد للالتحام بهذا الرجل الآخر.

في صمت الليل سمعت طقطقة السرير والهمسات والتأوهات والكلمات المشوشة والقبلات ونهنهة بكاء لا تعرف إن كان مصدره الحزن على الميت أم الإحساس غير العادي باللذة مع الرجل الجديد الذي اغتصب بين فخذيه ليس جسد أمها اللين ولكن صورة أبيها ورائحته وذكرياته في البيت.

في الصباح حملت حقيبة ملابسها وخرجت، مقطوعة من

شجرة. تساءلت في الطريق عن حالها وعن الطريق وعن المكان الذي تذهب إليه وبعد السؤال والجواب ذهبت إلى خالتها وأقامت عندها.

في بيت خالتها لم تضايقها سوى نظرات زوج الخالة. كانت النظرات تمزِّق ملابسها وتخترق حتى لحمها. خيوط النظرات مثل الأسلاك العارية تلسع لحمها. دخل عليها الحمام أكثر من مرة وهي عارية تماماً. وقال في كل مرة أن دخوله كان بطريق الخطأ واعتذر بصوت هامس وعينين فاجرتين وفحيح الرغبة يزيد من قوة صوت تنفسه. اقتحم غرفة نومها ليأخذ شيئاً ما وهي نائمة في الفراش وتلكأ وهو ينظر إليها.

حاولت أن تتكلم، أدركت أن الكلام سيفتح باباً من المستحيل سده، إن فتحت فمها قد تترك هذا البيت فوراً وإن كانت لا تعرف إلى أين. سكتت والرجل من ناحيته لم يتعد هذه المضايقات الصبيانية أيضاً.

تخرجت، عملت، قبضت أول مرتَّب في حياتها عندما جاءها خطاب التعيين في البحر الأحمر، كانت سعيدة. سافرت إلى هناك. لا أهل ولا بيت. العمل هو البيت. ولكنها وبعد مرور الشهر الأول اكتشفت أن لها راحات وأن الكل يسافر إلا هي. قالت لنفسها إن قضاء الراحات في المستشفى المركزي

الكبير أمر محتمل ولكن نظرات الآخرين أكلتها. والفضول أطل من الأعين والتساؤلات حاصرتها وسألها البعض عن الأهل والبلد والمشاكل المعلقة التي تمنعها من السفر إلى البلد حتى في الإجازات، هذا فضلاً عن عدم السعي للنقل إلى بلدها الأصلي. كان الكل حولها غرباء عن البلد، والرغبة في النقل هي أمنية الجميع ما عدا الذين استقرت أمورهم وأصبح بدل المناطق النائية النقدي جزءاً من دخلهم.

تعوَّدت أن تسافر في إجازاتها الطويلة عند خالتها وخالتها عرضت عليها أن تنقلها إلى المجموعة الصحية في نفس القرية، قالت شهد أن ذلك مستحيل. ردت خالتها، قالت أنها تعرف موظفاً كبيراً من أبناء البلد، قريباً لها من بعيد يعيش في مصر، قادراً على فعل أي طلب يطلب إليه فوراً.

سافرت له خالتها في المرة الأولى بمفردها وفي المرة الثانية كانت شهد في إجازة أخذتها معها. لم تكن شهد سعيدة بالنقل وكانت تدرك أن اهتمام خالتها وسعيها من أجل نقلها هدفه الوحيد أن تشارك شهد في تكاليف المعيشة. فالأيام صعبة ودخل زوج الخالة لا يكفي. وهي - أي شهد - في مثل هذه الظروف مثل الفرخة التي تبيض. تتوقف شهد ولا تقول أن الفرخة تبيض الذهب. فالذهب نادر وليس معها منه سوى أسنان صناعية والذهب يذكِّرها بالشبكة والشبكة

تستـدعي إلى الـذهن الحبيب والخـطيب والعـريس. أكثـر الغائبين حضوراً في وعيها.

يتـوقف التداعي في ذهنهـا، تنظر إلى الجـالس أمامهـا. يكون سارحاً، تقول أنها مستعدة لأن تـدفع عمـرها مقـابل أن تعرف ما يفكر فيه هذا الرجل ولأنها تدرك استحالة هذا. تهـز يدها، تنقر بها على المنضدة وتقول:

ـ نحن هنا.

يفيق الرجل من تحليقه ويعود، وإن كـان لا يعود إليهـا. يعود فقط إلى الجلوس أمامها.

سِجْنُ الكَلِمَات



من هو؟

سؤال يدق حياتها بعنف، يبحث عن إجابة؛ تنظر إليه وهي لا تجرؤ على نطق السؤال، إنه يبدو مثل الرجل المذبوح ومع هذا لم يقع بعد. وهي تتمنى ألا يقع أبداً فهو الجدار - ربما الوحيد - الذي يسند حياتها ويحميها من التهاوي والسقوط.

من هو؟

منذ أن عرفته والأسئلة تحوم حول رأسها مثل الطنين. ما اسمه بالكامل؟ ماذا يعمل؟ من أين يعيش؟ كم راتبه في الشهر؟ لماذا ينام الحزن - وربما القهر - بين أحرف الكلمات التي ينطق بها؟ ما هو الحادث الذي بترت ساقه فيه؟

في كل لقاء، تؤرقها الأسئلة، وتقرر السعي لمعرفة الإجابة، وتؤجل الأمر إلى اللقاء القادم، بمجرد أن تراه، ستبدأ اللقاء بطرح التساؤلات وتصر على معرفة الإجابة قبل

أي كلمة أخرى. أما اللقاء الراهن فربما كان من الأفضل أن يمضي بدون مشاكل.

عندما يأتي اللقاء الثاني، تهرب من الأسئلة في صمتها. أما هو فينظر إليها، يقرأ على وجهها علامات الاستفهام تطلب الإجابة. أدرك أن البنت تطالب بحقها في معرفة كل شيء عن حبيب القلب. هو يعرفها جيداً. خالتها حكت له كل شيء عنها.

في السفرية الأولى عندما حضرت له بمفردها، تطلب منه نقلها قال لنفسه: ماذا سيفعل إن خرجت التساؤلات من فمها فعلاً؟ ليس أمامه في حالة السؤال سوى طريقين لا ثالث لهما. إما أن يرفض الإجابة أصلاً أو أن يكذب عليها. ومن يكذب ينسى مع مرور الوقت. يكشف نفسه في أول مرة يعاد فيها الكلام من جديد، الأفضل ألا يكون هناك كلام في هذا الموضوع بالمرة. عوّدها ألا تكون هناك أسئلة من جانبها وهي قالت أن الأيام كفيلة بحل عقدة لسانه وجعله يتكلم. ومع هذا فقد بدت الأيام والليالي والأسابيع والشهور عاجزة عن إحداث هذه المعجزة. بدا الرجل خفيفاً بكلماته. وحتى عندما كان يتكلم فإنه كان يختار موضوعات بعيدة عما تفكر هي فيه. وعندما كانت تريد تحويل الكلام إلى ما تريد هي الحديث فيه كان يقف في وجه هذه المحاولات وكانت تبدو

أمامه وكأن وجهها قد أصبح مغطى بطبقة من الرضى الذي لا يعبِّر عن حالة من الرضى الحقيقي في أعماقها.

حاولت معرفة أمره من خالتها، حاولت جرها في الكلام أكثر من مرة. ولكن خالتها لم تقل لها أكثر من الذي قالته من قبل. الرجل قريب لهم من بعيد. ومنصبه كبير ويعيش في مصر ويساعدهم. أما من هو وما هي حكايته فلا تعرف. وإن كان التهرب في إجابات الخالة واضحاً. حاولت أن تسأل الناس في البلد عن الرجل الذي لا تعرف حتى اسمه بالكامل.

في البلد ومن الناس عرفت أن له أكثر من اسم، لم يقتصر الأمر على اسم رسمي وآخر للشهرة ولكنه كانت له مجموعة من الأسماء، معرض من الأسماء لا يربط بينها سوى أنها أسماء له. سمعت في البلد قصتين عنه لا علاقة لهما ببعضهما. قال لها شخص ادعى أنه كان على علاقة حميمة به، وذكره بأحد الأسماء التي اكتشفت أنها أسماؤه في البلد. إن الرجل كان مقاتلاً في الجيش وأنه أصيب في الحرب. سألته عن أي الحروب أصيب فيها. قال أنه من الصعب تحديد الحرب ولكنها حرب والسلام. بعد الإصابة سافر إلى آخر الدنيا للعلاج لف وطاف ومكث هناك شهوراً.

سافر على نقالة وكانت حالته ميئوساً منها. ورغم كل ما

سمعه عن معجزات الشفاء فقد وقف الطب عاجزاً ولم يتمكن من عمل أي شيء له. عاد بقدم صناعية وكان ذلك أقصى ما يمكن عمله له. وهو يتقاضى معاشاً ضخماً من الجيش وتعوله جمعية هي جمعية المحاربين القدماء في مصر، وله الكثير من المزايا في السفر والعلاج والتعليم وعضوية النوادي، وهو يعيش الآن عيشة ملك وإن كان الملك بقدم صناعية، وهو لم يحضر إلى البلد منذ إصابته أبداً. وكل من زاروه بعد ذلك كان يتكلم معهم عن الأعداء وتحرير التراب المحتل بالقوة وحدها. أكد لها أن البلد فكرت في إطلاق اسمه على أحد الشوارع. ولكن الأمر لم ينفذ وذلك لسببين: أولهما أن الشوارع في البلد ليست لها أسماء. وثانيهما: أنه ليس شهيداً حتى يطلق اسمه على أحد الشوارع. أضاف الرجل سبباً من عنده، قال أنه إن أطلق اسمه على شارع في البلد، فأي هذه الأسماء تطلق؟ كان لا بد من الرجوع له لسؤاله عن أحب الأسماء لديه ولكنه كان مسافراً للعلاج حيث عاد بالقدم الصناعية.

بعد العودة سافر إليه وفد من أبناء البلد للاتفاق معه على طريقة لتكريمه. فقال أنه لا يمكن أن تراه البلد التي أحبها بهذه الصورة، أي بقدم صناعية. طلب منهم نسيان حكاية التكريم هذه.

أكد لها الرجل أن الصحف القديمة كتبت عنه كثيراً في تلك الأيام وقالت أنه البطل ووصفته بصفات أخرى كثيرة. سألته إن كانت لديه بعض هذه الجرائد. فقال إنه لا يحتفظ بالجرائد لديه وإن كان قد أكد لها أن مكتبة المدرسة الموجودة في المجموعة الصحية، فيها هذه الجرائد والمجلات مجلدة ومحفوظة للزمان وللأجيال القادمة لكي تقرأ هذه الحكاية.

قالت أنها ستذهب ذات يوم إلى المدرسة من أجل قراءة قصة حبيب القلب وقد تفكر في استعارة هذه الجرائد وتلك المجلات لكي تأخذها له معها. وتجعله يعيش مفاجأة من النوع المحبب والجميل. ذكر لها الرجل الذي كان يحدثها اسم أمين المكتبة وحدد لها مكانه في المدرسة. وأكد لها مرة أخرى أن مجلس القرية اجتمع في إحدى المرات من أجل أن يعتمد مبلغاً من المال لترميم هذه الجرائد والمجلات عندما اشتكى أمين المكتبة من أن أمراض الورق قد تسللت إليها وقد اعتمد له مجلس القرية نصف المبلغ الذي طلبه وقتها بسبب الظروف المالية التي تمر بها البلاد.

سألته من جديد ولا تدري للمرة الكم إن كان متأكداً من صدق الحكاية. فرفض السؤال، ذلك أن البطل كان يجلس معه على دكة واحدة في الفصل وأنه رفيق عمره وأنه سعيد

ببطولته وكأنه هو نفسه البطل.

القصة الأخرى التي سمعتها طويلة وملتوية وإن كانت لم تصدقها وظلت أقرب إلى تصديق القصة الأولى. حكاها لها رجل قال أنه كان صديقاً شخصياً له. وإن كان قد ذكر اسماً غير الاسم الذي ذكره الرجل الأول، وأنه كان صديق عمره، وكان يجلس معه على نفس الدكة في الفصل في المدرسة الابتدائية التي هدمت منذ زمان مضى وزرعوا مكانها عدداً من النخيل الذي ثبت فيما بعد أنه نخيل ذكر ولم تثمر كل النخلات ولا بلحة واحدة.

قال أنه ـ أي حبيب قلبها ـ كان متزوجاً من زوجة، واحدة من بنات البنادر اللاتي يلعبن بالبيض والحجر بشرة بيضاء ناعمة وعيون جريئة لحد الوقاحة وشعر في سواد الليل. خانته مع بوّاب العمارة التي كانوا يسكنون فيها ولأنه كان قد أحبها لحد الجنون ترك لها البيت والشقة وما فيها ورحل.

وفي سكنه الجديد، أحب امرأة متزوجة، امرأة أخرى من بنات البنادر البعيدة. كان يذهب إليها في السابعة من صباح كل يوم. عقب خروج زوجها الموظف إلى العمل ويظل عندها حتى التاسعة صباحاً. ساعتان بالضبط وهو معها.

(قالت شهد لنفسها: دائماً المواعيد المحددة، إنها مسألة محيِّرة فعلاً). عاد زوجها ذات مرة لأنه كان قد نسي شيئاً في البيت. أو ربما لأن الجيران أخبروه بحكاية الرجل الذي يحضر إليها بمجرد ذهابه إلى عمله. وجدهما الزوج في الفراش هي تحت وهو فوقها. شاهد الزوج فخذي زوجته مرفوعان وبداخلهما مؤخرة هذا الغريب، جن جنونه، قتل الزوجة وعجن إحدى قدمي العشيق حتى تحولت إلى خليط من الدم واللحم والعظام.

لفوا القدم التي أصبحت عجيناً في كفن ووضعوها في قبر العائلة هنا في القرية وعندما تساءل الناس. قالوا إنهم يدفنون طفلاً مات في حادث مؤلم وفظيع. وتعرض الرجل لعلاج طويل، انتهى في الخارج بتركيب هذه القدم الصناعية. وأحيل إلى المعاش من الوظيفة التي كان يعمل بها وسوى معاشه ولكن له بعض الدخل الآخر الذي يوازن به أموره.

شخص ثالث، قال لها أنه بعد إصابته في الحرب يعمل الآن مستشاراً لوزارة التربية والتعليم في إحدى المناطق في القاهرة لشئون التربية العسكرية. ذهب إلى العمل وهو سعيد، في اليوم الأول أفهموه أن حضوره كل يوم ليس ضرورياً. رد عليهم بأنه يرغب في الحضور كل يوم إن كان

ذلك لا يسبب لهم الضيق، ضحكوا وقالوا إن حضوره على الرحب والسعة، صحيح أنه توجد أزمة مكاتب، فالوظيفة الوحيدة يقابلها مائة موظف، والمكان الوحيد من المفروض أن يجلس فيه هذا العدد. ومع هذا ظل يذهب إلى العمل كل يوم، لأنه لو بقي في البيت يوما واحدا دون الخروج منه، لشعر بالموت. طوال عمره وهو يشعر أن العمل هو مبرر وجوده الوحيد في الحياة، ما أحزنه أنه شعر بعد ذلك أنهم لا يرغبون في ذهابه. قال لنفسه، لقد رضينا بالهم ولكن المشكلة أن الهم لم يرض بنا. وأن الأزمة ليست أزمة مكاتب ولا غيرة، ثم لم يذهب بعد ذلك إلى العمل.

قال لها أنه يحصل على معاش كمقاتل سابق في القوات المسلحة، وفارق بين آخر مرتب كان يحصل عليه والمعاش من التربية والتعليم. قالت لنفسها، أن الحكايتين، الأولى والأخيرة، هما الصدق كله، أما الحكاية التي اندست في الوسط فهي حكاية كاذبة من الألف إلى الياء. إنه واحد من جرحى الحروب، ولكنها سألت نفسها إن كان ذلك صحيحاً فلماذا يعتصم تحت قيد ثقيل من الصمت والغموض؟ لماذا لا يتكلم ويخرجها من حالة الحيرة هذه؟

سألت عن حكاية زواجه، هل تزوج أم أنه أعزب حتى الآن أم أرمل أم مطلّق؟ قال لها أن زوجته التي لم تنجب له

ويبدو أن العيب منها وليس منه فقد كانت له غـزوات وتجارب في مرحلة العزوبية في القرية وفي المدينة والجميع يسمع عن هذه المغامرات.

قـال لها أن زوجتـه من بنات البنـادر، أولئـك الـلائي لا يعرفن معنى الوفاء (دائماً النساء في حياتـه من بنات البنـادر. قالت ذلك شهد لنفسها وهي تتعجب من حكاياته كلها). هذه الزوجة تركته في وضـع غريب فـلا هو زوج ولا هـو أرمل ولا هو مطلق. على الـورق هو زوج، ولكنـه من الناحيـة العملية فهو يعيش بمفرده.

قـال لهـا، أن حبيب القلب، بعـد هـذه التـطورات التي مرت به، جعلته يصل إلى يقين أنه لم توجد بعد المـرأة التي تستحقه. إن المرأة الجديرة بأن يدق قلبه لها لم توجد بعد.

كان قلب الرجل قد أصبح فارغاً منذ فترة مضت، كان قد أصبح مكانه رغيف يابس لم تمتد له يد منذ سنوات طويلة.

وعنـدما التقى بشهـد، كان قـد قرر أن يـربط حياتـه بها، ولكن بـطريقته الخـاصة. قـال أنه لن تـوجد قـوة على سـطح الأرض قادرة على أن تبعدها عنه.

وعندما عرف ظروفها، قال لنفسـه، إنها هي المـرأة التي كان يبحث عنها منـذ سنوات، كـان أقوى منهـا، كان لـديه -

لأول مرة ـ إحساس بالتفوق عليها وباحتياجها له. حتى لو تزوجت وتركته فلن تجد سوى إنسان فقير، يقبل الزواج منها. ولهذا ربما تضاعف احتياجها له بعد الزواج. لأنه سيكون احتياجها هي واحتياج من تتزوجه أيضاً. واحتياج اثنين ضعف احتياج شخص واحد.

كان حزيناً وهو يدفع لها في أول كل شهر، من قبل كان يقول أنه من السهل الحصول على المرأة التي تحب الإنسان حتى لو كان ذلك بالمال ولكنه الآن يتوقف أمام معنى الدفع الذي يمزق نفسه. ومع هذا كان الدفع هو المخرج الوحيد له. تعود إليه من الرحيل مع أفكارها، تنظر إليه، تبدو بعيدة عنه بقدر ما تجلس قريبة منه الآن، يفرك وجهه في عصبية، يخيل إليه أنه يريد محو الملامح من فوق وجهه أمامها.

تعود إليه وكل ما في الحياة مجرد مشاهد تنظر إليها، كل ما هو أمامها مجرد صورة من داخل برواز تتفرج عليه وكأنه مجرد مشهد أصم. تنظر إليه من جديد، يتولد لديها إحساس أنه ينظر إليها من بعيد في صمت، تاركاً لها حرية بعض التصرفات الصغيرة والبسيطة على ألا تبحر بعيداً عنه أبداً.

تقول في نفسها، لا راحة لمتعب، المعنى الوحيد المؤكد أنها تتقدم في السن وهي لا تدري. تحاول أن

تتكلم، يجف الفم من طوال الصمت ويبدو وجهها وكأنه منقوع في الدموع.

تأتي لحظات ما بعد الغذاء صامتة أيضاً، وخلال الطعام يكون الصمت مؤكداً، يدور في ذهنها معنى محدد: ما أكثر قسوة أن تمضغ طعامك في صمت، دون الحديث مع الآخرين، إن ذلك يجعل الإنسان أشبه بحيوان يأكل من مزوده.

لحظات ما بعد الطعام، إنها اللحظات التي يكون من الصعب وصفها، فهي تحب النوم بعد الأكل، هكذا تفعل دائماً سواء كانت في البيت أم في المستشفى،ولكنها في يوم الجمعة اليتيمة تشعر بحالة من العذاب بعد الأكل، فالنوم في مكان عام عيب بالنسبة لفتاة مثلها على الرغم من أن ذلك ليس عيباً بالنسبة للرجال. وهو من ناحيته لا ينام بعد الأكل أبداً، لديه قدرة فريدة على اليقظة.

تقول لنفسها، ربما كان ينام الشهر كله ولذلك فهو سعيد باليوم الذي يقضيه معها ويبدو غير مستعد للنوم لحظة واحدة منه.

يتوقف الزمان عن الجري بعد الظهر، تقضي وقتها في ملاحظة التغيرات والتبدلات التي تحدث على جلد الطبيعة

والتي تقربها من لحظة ترك المكان. تقوم من مكانها، تذهب إلى دورة المياه، تنظر إلى الآخرين حولها. تحاول رصد العلاقات بينهم، هذا زوج هذه، وتلك خطيبة الجالس أمامها، تحاول البحث عن مكان لها على خريطة هذه العلاقات المتشابكة حولها.

يبدو الزمان وكأنه قد توقف عند حدود هذه اللحظات وتود عدم المضي إلى الأمام. تحاول الاقتراب منه، تشعر أنه وحيد حتى وهومعها،وهو من ناحيته سعيد بالرقاد في دائرة صمته ويحذر حتى الاقتراب منها. لديه إحساس حاد بالتوحُّد ومع هذا يقول لنفسه: إن الخوف القاتل من الوحدة يشق قلبه نصفين.

وفي البيت قال عنه جيرانه، أنه دودة من ديدان الليل، لا يعرف النوم طريقه إليه. أنوار شقته مضاءة طول الليل،وطول النهار فإن حركته لا تهدأ. تتأمل حالها معه وتقول لنفسها، ليست الأمراض وحدها هي التي تعدي. المرح والبهجة والسرور لها عدواها. والحزن يعدي أيضاً. وعدواه تمسك في النفس لأنها ليست خارجية مثل السرور بل تتسرب إلى النفس بهدوء وتستقر في الأعماق.

يحتاران في كل مرة..

من الذي عدا الآخر بحالـة الأسى التي تمسك بـالقلب، لقد أصبح الأسى وسادة تحت قلبيهما معاً.

يتلكـأ الزمـان مرتين وهـو يتدحـرج على مساحـة الجمعة اليتيمة. مرة في الصباح عندمـا يحدث وجـع اللقاء، وأخـرى في المسـاء، عندمـا يبدأ دبيب الـفراق. والمساء يبـدأ وهمـا جالسان هنـاك. حيث تأتي تمـوجات الميـاه في النيل، تـأتي بسهـولة وبـدون صوت هـذه المرة وتلعق الشـاطىء بـألسنتهـا وتهمس في أذنـه، أذن الشـاطىء بكلمـات العشق عن الليـل القادم حيث يسترهما ظلامه.

يتلكـأ الزمـان مـرتين. المـرة الأولى قـابلنـاهـا في ذلـك الصباح الذي يبدو بعيداً الآن. ونحن نواجه في هـذه اللحظة التلكؤ الثاني لأن الفراق يقترب.

ينـظران إلى بعضهما، يـدور في ذهنه خـاطر جديد، وإن كان هذا الخاطر لا يقترب من ذهنها في نفس الوقت.

كـل الأشياء الجيـدة تتـأخـر دائمـاً. تـأتي بعـد فـوات الأوان، في الـوقت الـذي لا نستـطيـع أن نستمتـع بهـا فيـه. يضرب كفاً بكف وهو يسأل نفسه: ما قيمة الإنسان إذا امتلك العـالم وهو يمشي بقـدم صناعيـة؟ إنه لن يتمكن من الجـري في مملكته أو حتى رؤيتها.

ينظران حولهما..

الأصيل، الأصيل الذهبي، الأصيل الواهن يلفهما معاً.
تأتي ساعات الأصيل وتفتر معها الرغبة في فعل أي شيء.
تفكر في حالها، تخشى ذلك الزمان الموحش الذي يأتي
عندما تحفر الأيام أخاديد غائرة في وجهها ويتهدل جسدها ولا
يبقى فيها ما يدفع الإنسان لأن يلقي عليها نظرتين. نظرة
واحدة تكفي. لأنه لا يوجد ما يدفع الإنسان لأن يلقي النظرة
الثانية. يطوف التعب بعينيها، تتكون حولهما دائرتان لونهما
أحمر تنتهيان بدائرتين زرقاوتين وحولهما معاً دائرتان
رماديتان.

ولكنه يكره رؤية الشمس المسائية وهي تغرب. وإن كان
يتابع الأماسي، تلك التي تنسل في رقة الموسيقى أما هي فإن
المرارة تنتشر في نفسها كلما تقدم النهار، تتراكم في بئر
القلب وتخرج من قاع الكلمات مع صوتها عندما تتكلم.

ينهض، يتحرك قليلاً، ينظر إلى الأفق البعيد، يسحب
نفساً من سيجارة في يده. نفس طويل هادىء وممطوط
ويخرج الدخان من فمه بنفس البطء.

أخيراً، أخيراً، يأتي المساء..

أخيراً، يصبح المساء عاشقاً فاحم الشعر يتكىء على
صدر شهد.

إحتراق القلوب



العودة، الطريق إلى البلد من جديد، تأتي لحظة الـوداع التي ينتظرها. تترك شهد رائحة حلوة فـي أنفه، تظل معه لمدة أيام بعد الوداع. في أول وداع تظاهـر بالحـزن وهو يـودعها. حـزن لفتـرة من الـوقت. تخيـل نفسـه وهـو يبكي من شـدة الحزن، ولكنه استشعر في أعماق نفسه شعوراً بالارتياح، وإن كان هذا لم يحدث سوى في المرات الأولى فقط. لكن الأمر تغيَّر بعد هذا.

في لحـظات الـوداع التي جـاءت بعـد هـذا، تمنى لـو تغيرت الأمور، لو يبكي، لو تسعفـه دموع العين، ولكن هـذا كان ترفاً بالنسبة له. لحظة الوداع تبدو شهد ممتلئـة بالهـواء، مثل العصفور عنـدما يـطير. العـالم كله يميل نحـو المغيب. تعـود إلى بيت خالتهـا وزوج خالتهـا والصمت الـذي يفـرض نفسه في كل لحظة تمر.

عندما يلوح لها مودعاً وهو مـا يزال داخـل التاكسي حتى

لا يواجه عذاب النزول من التاكسي والبحث عن تاكسي آخر، وعذاب ركوب التاكسي الآخر - إن وجد - يلوح لها مودعاً ويترك وراءه عاصفة من الانفعالات. تقول لنفسها، كيف ستواجه الأشواق المتراكمة بطول الشهر كله. ويلف القلب حزن هرم عجوز، وابتداء من اليوم التالي يتغلغل الرجل في حياتها أكثر وتعيش ذكرى الأمس القوية يصبح لها ثقل الكائنات القوية.

تبدأ رحلة العودة من المعادي وإن كان اللقاء له موعد ثابت فالانصراف من الكازينو له موعدان. في الصيف يقومان في الخامسة والنصف ولكنهما في الشتاء يقومان في الرابعة. وفي الربيع والخريف يكون الموعد في منتصف المسافة بينهما.

يدفع الحساب، ويوزع البقشيش على العاملين، تهمس لنفسها وهي تراه يوزع الأموال، أنه رجل قرر أن يشتري كل ما يحتاج إليه من هذا العالم، حتى ابتسامات الآخرين، يدفع ثمنها ويريح نفسه. يجري المنادي الواقف أمام الكازينو، يحضر تاكسياً من تحت الأرض. يفهم سائقه أن التوصيلة طويلة، من هنا وحتى موقف أحمد حلمي. وقد لا تجد الهانم سيارة هناك، فيوصلها إلى مدينة بعيدة، يقف التاكسي بجوار الرصيف تماماً، يفتح الباب، يركب في المقعد

الخلفي،وتلف هي إلى الناحية الأخرى. لتركب في المقعد الأمامي الموجود بجوار السائق. يعطي المنادي مبلغاً من المال. ما يدهش شهد أن هذه المبالغ تكون جاهزة معه، مفكوكة وفي أماكن يعرفها جيداً في جيوبه. كل ما يفعله أن يمد يده لكي يخرجها فقط. لديه قدرة فريدة على التنظيم. سعدت شهد. قالت ربما كان هذا كله جزءاً من الاستعداد السابق ليوم اللقاء. شهر كامل يقضيه وهو في انتظار هذا اليوم. لهذا لا يترك أي تصرف، صغيراً كان أو كبيراً للظروف.

عصر الجمعة، الشارع خال والورق يتطاير وضباب لحظة الغروب يملأ المسافات بين الأشجار. حاولت أن تتخيل هذا الطريق في الليل. سمعت الكثير عن العشاق الذين يتم ضبطهم في هذا الطريق. تمنت أن تصبح من عشاق الليالي، ولكن أين الرجل وأين السيارة الخاصة وأين القدرة على الجماع في السيارة والاندماج فيه وممارسته على المقعد الخلفي والملابس الملقاة على المقعدين الأماميين. حتى يصل رجل ما، يرن بيديه على زجاج النافذة فيخرجهما معه لحظة الوصول إلى قمة النشوة.

رحلة العودة بمفردها إلى البلد، أنين السواقي القديم يطن في رأسها وصورة الفتى الجالس في الكرسي أمامها

توشك أن تقع من أمام عينيها.

تشعر بطعم الملح تحت الجفون ورأسها يطق لدرجة أنها تتصوره خلية من النحل.

ما جدوى هذا كله؟

كلمات ثلاث ولكنها تشكل السؤال الذي يحرم شهد من كل نعم الحياة. يستيقظ السؤال الغائم في أعماقها قبل اللقاء، يتردد عليها يوم الأربعاء ويلف حياتها يوم الخميس، وفي ليلة الجمعة اليتيمة يتحول إلى ساحة من الألم تخترق رأسها من ناحية إلى أخرى. تؤجل السؤال إلى اللقاء. وخلال اليوم لا تجرؤ على طرحه. ولكنها في طريق العودة تقول أن السؤال يطرح بعد فوات الأوان، لم تعد لديها سوى القدرة على الاستمرار، تتدحرج مثل الطوبة النازلة من قمة تل عال.

تعود شهد إلى البلد متعبة، يدق التعب نخاع عظامها، تتخيل شكل الفراش في انتظارها. تمني نفسها براحة لذيذة الطعم لأنها تأتي بعد التعب. تنظر إلى مكان البيت، تتخيل أنه مضاء وأن الزينات معلقة على واجهته وأن الحارة كلها تسبح في بحار النور الزاهي. تنصت بأذنيها لشلال من الأغنيات يملأ رحابة المكان والخلق يملأون الحارة والشارع

كأنه يوم الحشر العظيم. يعمل خيالها بصورة محمومة ويتحول ذهنها إلى مسرح تتحرك فوقه راقصة وفرقة وغناء ونقوط وميكروفون، يحمل الصوت العالي إلى القرية وإلى الحقول. وهي تجلس في مكان العروسة، تتوقف في منتصف حلم اليقظة الليلي لتسأل نفسها: عروسة؟!. لا تستطيع الرد من حلاوة المشهد. إن حلاوته أكثر من قدرتها على تذوقه، ولكنها عندما تسأل نفسها ومن العريس يتبخر الحلم وكأن يداً امتدت فعصفت به في ضربة واحدة وتتناثر أجزاء الحلم في الهواء.

في منتصف المسافة من المعادي إلى موقف أحمد حلمي يمد يده. يدس في حقيبة يدها المبلغ الذي تأخذه منه كل شهر والذي لولاه ما تمكنت من مواصلة الحياة وما استطاعت الإقامة عند خالتها. وفي كل مرة يدس يده بالمبلغ تسأل نفسها: لماذا لا يدفع لها إلا وهي في التاكسي؟ إنهما يظلان معاً طوال النهار ومع هذا لا يختار سوى هذه اللحظة بالذات. تسأل نفسها: ماذا يقول سائق التاكسي عندما يشاهد هذه اللحظة بالذات؟ مع أنهما يختليان ببعضهما طويلاً في الكازينو. تعود فتقول ربما كان سائق التاكسي يعرف الحكاية كلها. وفي هذه الحالة قد يصبح شاهد إثبات على واقعة الحصول على المبلغ.

في المرات الأولى، كانت تشعر بالخجل وهو يضع المبلغ في يدها ولكن الخجل بدأ يذوب ويتلاشى بعد ذلك. بل أنها بمجرد أن تركب تاكسي العودة وقت الغروب الذي لا طعم له، كانت تعيش لحظات انتظار أن يعطيها المبلغ المالي.

من قبل كانت تعيش على مرتبها فقط، وكانت قد رتبت أمور حياتها على هذا الأساس. كانت تقبض في أول الشهر ثلاثة وثلاثين جنيهاً ونصفا. تدفع منها عشرين جنيهاً لخالتها نظير الإقامة والمعيشة طوال الشهر ويتبقى لها ثلاثة عشر جنيهاً ونصفٌ. تصرف حوالي ثمانية وثلاثين قرشاً في اليوم وإن أنفقت أكثر من هذا المبلغ في يوم تمسك يدها في الأيام التالية، حتى تعوض ما أنفقته زيادة من قبل. نظام فرضته على نفسها حتى لا تضطر إلى الاستدانة من أحد. لو استدانت من أين ترد الدين وهي ليست لديها أي دخل خارجي وأمها لا تعطيها مليما واحدا. بل تلمح دائماً إلى أنها من المفروض أن تدفع لها بعد أن أصبح لها مرتب ثابت.

في الأيام الأولى من الشهر كانت تفك الجزء الخاص بها من المرتب وتضع مبلغ كل يوم بمفرده حتى لا يتعدى مصروف يوم على الأيام الأخرى. كانت تفكر في المخرج من كل هذا. إما الزواج أو السفر إلى دولة عربية. الطريق من

المستشفى إلى مكـان العمل في هـذه الدولـة يبـدو مفـروشـاً بأوراق البنكنوت. الذهاب إلى هناك سيحل كل مشاكلها. لم يحضر الزوج، كل من يقترب منها ليس الزواج هدفه. قـالت إن السفر إلى دولة عـربية سيحـل حتى مشكلة العريس مـا أن تعود من هناك حتى يقف العرسان طابورا بدون نهاية.

عجيب هـذا الـزمـان، استـدارة القـرش هي سيـده وهي ربه. حضرت بمفردها. قالت أنها جاءت من أجل أن تشكـره على نقلها إلى بلدها، وإن كان هدفها الحقيقي مـن الحضـور هو أن تطلب إليه مساعدتها في السفر إلى دولة عربية.

تساءل الرجل:

ـ بمفردك؟!

قالت في بساطة:

ـ طبعاً.

ارتفع حاجباه من الدهشة، قال إنه من الصعب أن تعمل فتـاة جميلة وصغيرة مثلهـا بمفردهـا في دولة عـربية. فـرحت وهي تسمعـه. قـالت إنهـا المـرة الأولى التي تـوصف فيهـا بالجمال. أكمل أن هناك شرطاً أساسياً لكي تسافري إلى دولـة عربية. قال:

ـ أن تكوني متز.

لم يكمل الكلمة التي توقف في منتصفها. وإن كانت هي قد عرفت الكلمة كلها وأدركت بحسها الأنثوي أن هذا الرجل لا يحب الحديث عن زواجها. حاولت الاستفهام منه. تهرب من الاجابة ثم حول الحديث إلى ناحية أخرى.

قالت له ولكنها غير جميلة. قال لها إن ذلك غير صحيح، إنها جميلة. ولكن جمالها من نوع خاص. جمال في حاجة إلى بعض الوقت حتى يتسلل إلى الإنسان ويشعر به، وعندما يمنحه الإنسان هذا القليل من الوقت فإن هذا الجمال يستقر بداخله إلى الأبد.

سألته عن حكاية الزواج وعلاقته بالسفر. تعكر وجهه وقال لها أنها بعد الزواج، بعد أن تجد رجلاً تعيش في عصمته لها أن تسافر كما تشاء أما الآن فليس أمامها سوى البقاء في مصر. قالت أن من يده في الماء لا يمكن أن يشعر أبداً بمن يده في النار. تركها بعض الوقت مع أفكارها، كان صامتاً. ولكنه فاجأها بسؤال مباغت:

ــ كم تحتاجين من المال شهرياً؟!

نظرت إليه وهي لا تفهم ما يرمي إليه:

ــ كل المطلوب هو الانتقال من عيشة الكفاف إلى معيشة معقولة..

لم تسأل نفسها هذا السؤال من قبل أبداً. لكل منا قاعه الخاص الذي يعرفه. ولكن من الذي رأى بعينيه سقف أحلامه؟ لا سقف للأحلام أبداً. إنها أفق متجدد يبعد عنا باستمرار غريب.

لم تسأل نفسها هذا السؤال من قبل أبداً. لم تنطق، خافت أن تنطق بأي رقم فيبدوا كبيراً. وخافت أن تنطق بأي رقم فيبدو صغيراً.

أنقذ هو الموقف:

ـ إتفقنا إذن.

على أي شيء كان الاتفاق؟ سألت نفسها. قال لها أنها ستدفع لخالتها ابتداء من الشهر القادم ثلاثين جنيهاً بدلاً من العشرين وسيبقى لها كل شهر ثلاثون جنيهاً لمصروفها. هذا بخلاف مرتبها الذي تحصل عليه. لها أن تتصرف فيه بالطريقة التي ترتاح لها.

قبل أن تسأل عن مصدر هذه الأموال قال لها، إن زيادة المبلغ الذي تدفعه لخالتها سيزيد من راحتها ويكثر من فرص اللقاء ويجنبها أي مشاكل يمكن أن تحدث في المستقبل مع خالتها. فكَّرت هي في عدم رفع المبلغ. سألت نفسها لماذا لا تدخره لنفسها وخالتها لم تطلب منها أي زيادات. وإن

زادت المبلغ الآن معتمدة عليه فكيف تستمر إن خلى بها وتوقف عن الدفع؟ ومن يضمن لها عدم مطالبة خالتها بزيادات مماثلة بعد هذا مثل العلاوات الدورية التي تمنح للموظفين كل عام.

قالت له؛

ـ الأرقام التي قلتها أضعاف مرتبي.

ردَّ عليها:

ـ أعرف.

سألته من جديد:

ـ والباقي؟!

خرجت الكلمات منها بلهفة.

ولكنه رد باختصار:

ـ يتدبر.

طريق العودة لأول مرة. الطريق إلى القرية. سألت نفسها: ولم يفعل هذا الرجل كل ذلك؟ مقابل أي شيء يفعله؟ كانت لديها رغبة في السير في هذا الطريق حتى آخره وبما كانت مطالب هذا الرجل منها.

في الليل، كانت سعيدة، لم تكن لديها رغبة في التخلي

عن حلم السفر إلى دولة عربية بهذه السهولة. ولكن اليد التي قدمت لها كل هذا بدون مقابل خلقت بداخلها حالة من الإثارة والنشوة جعلتها تتخيله في موقف المحب والعاشق وهي ـ للمرة الأولى ـ في موقف المعشوقة.

أما هو، ذلك الحائر في المسافة ما بين البيت والمقهى. فقد قال لنفسه أن الحل القادم على يدي شهد سيكون الخلاص. وهذا سيجعله يتمسك بها بدون حدود ومهما كانت التضحيات من جانبه.

موقف أحمد حلمي. مساء الجمعة، العمل فيه يبدو خفيفاً، الضغط في هذا الوقت يكون في الحضور إلى مصر من الأقاليم وليس في السفر منها. يعزم عليها أكثر من سائق لكي تركب. قبل أن تدفع المبلغ لخالتها، خافت أن تكون على علم بالدخل الجديد. ترددت ولكنها دفعت المبلغ، دفعته ولم يسألها أحد عن مصدره فرحوا بالزيادة الجديدة، تعجبت. قالت أنها لو كانت قد خفضت المبلغ لتعرضت لأسئلة لا حصر لها. وربما طلبوا منها كشفاً بدخلها وأين يذهب هذا الدخل ولكن الزيادة جعلتهم لا يتوقفون لحظة واحدة للسؤال.

يتوقف داخل التاكسي، يرفض أن يمشي التاكسي من الموقف قبل الاطمئنان عليها. يبقى حتى تركب سيارة أجرة

من سيارات الأقاليم. يلتقط رقم السيارة، يدوِّنه في ورقة معه ببطء، إنه يفعل ذلك من باب الاطمئنان عليها. تظل الورقة معه وفيها رقم السيارة حتى يلقاها في المرة القادمة.

يقول لها أنها لو لم تجد سيارة تركبها حتى الزقازيق لن يتركها. فهو رغم إقامته في المدن ما زالت لديه أخلاق أبناء القرى بكل شهامتهم. تصمت، تنظر إلى شفتيه بلهفة. تقول له وهي تتصنَّع الضحك:

ـ ألا تفكر في أن تأخذني عندك في هذه الحالة.

تصيبه حالة مفاجئة من الارتباك نادراً ما تشاهدها على وجهه. ينهي حالة الارتباك ويسيطر على نفسه ينظر إلى الناحية الأخرى ويقول لها:

ـ أبقى حتى تركبي.

تواصل تصنُّع الضحك:

ـ هكذا أنت دائماً.

نظرته لها تتحول إلى علامة استفهام.

تكمل:

ـ تحاول إبعادي عنك.

تقرأ في عينيه حالة من الاشتياق والعشق لم تلاحظهما

سوى في هذه المرة. يتحول الاشتياق إلى مشروع دمعة تتجول في العين.

يقول لها:

ــ أخشى أن يقلقوا عليك في البلد.

تعود إلى الواقع، لا فائدة من التحليق مع الأحلام، تسأل نفسها هذه المرة: وهل هناك من يقلق عليّ. يا ليْت.

لحظة الوداع، عيناها ترشحان بالألم وملامح وجهها تتغير. العيون ينطفىء بريقهما والفم يبدو مطبقاً وكأن الشفة السفلى قد التصقت بالشفة العليا ولا توجد قوة في العالم قادرة على فصلهما. إن اراد سماع صوتها في هذه اللحظة فعليه أن ينتزع الكلمات بكماشة من فمها، كلمة، كلمة. تقول لنفسها، إن الهمّ سيركبها شهراً بأكمله، تنظر إليه، لا يبدو أنه هو رجلها الذي قضت معه اليوم. يبدو أنه إنسان آخر يلعب دوره. أرسله هو لها وهو موجود الآن في مكان ما على الأرض.

تجلس في السيارة، يتحرك التاكسي الذي يركبه، متجهاً به إلى المنزل، يفكر في الذهاب إلى المقهى ولكن رغبة خاصة تدفعه للانفراد بنفسه، في الجزء الباقي من اليوم. إن ذهب إلى المقهى، سيكون هناك الآخرون والحديث

والكلمات وضجيج الآخرين والتطفّل عليه وهو يريد أن يشرب صمت آخر اليوم، أن يستعيد ما جرى. القلب متعب والنفس مفعمة بمشاعر كثيرة.

وفي كل مرة، يسأل نفسه بعد فراقها: ماذا يريد من شهد؟ أما لهذا الطريق من نهاية؟ إنها بشر وفي يوم ما سترفض كل هذا، ستثور عليه. قد تصطدم في طريق حياتها بشريك عمرها الحقيقي. إنسان تجري في عروقه دماء الشباب وينتفض جسمه بماء الحياة. في هذه اللحظة تكتشف عبث الاستمرار في الارتباط به، تطالب بحقها الطبيعي في الحياة. كان ينتظر هذه اللحظة وكان يحاول معرفة بوادرها من خلال متابعة الجديد في تصرفاتها. ولكن اللحظة لم تأت. تحولت شهد إلى كائن خاص صنع له بصورة مطلقة. لاحظ بعد فترة أنها بدأت تقلّده في طريقة الكلام. في النطق والمفردات المستخدمة وإشارات اليدين وحركات عضلات الوجه وبدأت وجهات نظره في الحياة تصبح هي نفسها وجهات نظرها. وأصبحت تفسر أحداثها بنفس الطريقة التي يفسرها بها. لم يعتبر ذلك نجاحاً. كان يتصور أن السبب الحقيقي في ذلك هو المبالغ التي يعطيها لها. كان يقول لنفسه: آه لو كان ذلك بدافع حبها له. لو مر شهر واحد دون أن تحصل على مليم واحد منه، لو ذهبت إلى المعادي مرة

واحدة وأصرَّت على دفع الحساب، لو حدث هذا مرة واحدة. لقال لنفسه أن لديها من الدوافع ما يختلف عن تصوراته. لأكد لقلبه أن قلبها تحرك.

كلما اقتربت منه أكثر وضعفت أمامه أكثر كان يقول: إن استدارة القرش واستدارة القلب، جعلت الطريق بينهما ـ القرش والقلب معاً ـ طريقاً واحداً. وأنه لو عجز عن دفع مبلغ كل شهر لما رآها مرة أخرى.

كان يثور على نفسه، تسرع دقات القلب المتعب. وتتسلل حبات عرق شحيحة مالحة الطعم على جلده الذي تكرمش قبل الأوان، يقول لنفسه، أنه هو الذي ارتكب الخطأ الأول، عندما بادر بالدفع لها منذ البداية وليس أمامه سوى الاستمرار.

فكَّر مرة في أن ينهي الأمر، ولكنه اكتشف استحالة ذلك. أيام الشهر كلها، تتجمع مثل ذرات الغبار في يوم خماسيني، لكي تلتقي في هذا اليوم. كافة السعادات والتعاسات والاحباطات وصمت الشهر كله ينتظر لحظة اللقاء التي تتحول بالتالي إلى صمت من نوع آخر.

تسللت شهد إلى حياته دون أن يدري، وضعته في قالبها بدلاً من أن يضعها هو في قالبه. حاول اصطيادها فاصطادته

هي. يقول لنفسه في الليالي الطويلة: إنه لا يعرف ماذا كان سيفعل بدون شهد. وفي كل شهر، كان يقدر أن يصارحها. أن يتكلم معها. أن يقول ما عنده ببساطة وأن يحول المسافة بينه وبينها إلى طريق سالك بين القلب والقلب. في اللقاء كانت الكلمات تهرب منه، تخونه، يبحث عنها فلا يجدها. يحرك الشفتين فلا يخرج من بينهما سوى الهواء.

ينزل من التاكسي بالقرب من منزله، يشتري ما يريده، لو نسي شيئاً سيتأجل الحصول عليه للمرة القادمة التي سينزل فيها وقد تأتي هذه المرة بعد يومين. لهذا تعود على كتابة ما يريده في ورقة، يخرجها ويخرج القلم ويمشي في السوق ما يجده يشطب عليه ويظل متنقلا حتى ينتهي من تشطيب كل ما في الورقة التي معه. يصعد إلى شقته. الفراغ والصمت والوحدة تثقل عليه.

وفي البيت، في ظل الخوف المتجدد من الحركة. لا يبقى له من أنيس سوى الصمت والعتمة. كل شيء في بيته قديم تفوح منه العطانة والعتة والزمن. مثل روائح المخازن الرطبة والمستشفيات والبيوت المهجورة، يحن للنزول إلى الشارع من جديد والتسكُّع في الشوارع حتى يموت من التعب. يتمنى لو كانت شهد معه، ويطرد الأمنية فوراً. يسأل نفسه: هل تأتي شهد إلى هنا وتشاهد القدم الصناعية؟!

وتـذهب إلى السوق. وفي آخـر الليل تحـل القدم الصنـاعيـة وفي صباح اليوم التـالي تركبهـا له، وتشفق عليـه في لحظات فك القدم وتركيبها. وتصبـح بعد فترة من الوقت رجـل البيت ويتحـول هـو إلى ست البيت دون أن يـدري يعتمـد عليهـا ويصبـح في النهايـة عاجـزاً تمامـاً فهل يتمنى أن تكـون شهد موجودة فعلاً؟!

يأتي الليل وتـأتي معه شهـد. ليل البيت. الليـل المتعب المضني بتوهج شهـد في ذاكرتـه. يتمنى لو كـان يعرف فتـاة أخرى يكشف وجهها عن الـدفء والراحـة أكثر من الاشتهـاء والرغبة. ولكنه عندما يتذكرها في صمت الليالي يسأل نفسه: لم تبـدو شهد شـاحبة الـوجه ولم تتسلل بعض الخطوط إلى وجهها؟، يخفق قلبه، يوشك أن يختنق.

يطـرد الأمنيات، يقول لنفســه، أمامــي ساعـات حتى يأتي النوم. يحضرالجرائد التي اشتراها في الصباح ومعها قلم رصـاص. يفتح الجـرائـد. لـه تـرتيب معين يبـدأ بـالصفحـة الأخيرة، يقلبها، يتوقف أمام صفحة الوفيات. يقول لنفسه من يمت ولا يكتب نعيه هنا لا يكـون قد مـات. يفكر في مـوته. من الـذي سيكتب لـه النعي في هـذا المكـان. وفـوق النعي صـورة قديمـة من أيـام الشبـاب التي ولَّت. فكَّـر في شجـرة العائلة. لا يوجـد منهم أحد الآن. والـذين ما زالوا على قيـد

الحياة لا تربطه بهم أي صلة. بعد الذي جرى له تولد لديه إحساس أن كل من يقترب منه له مصلحة. وعندما كانوا يتحدثون عن صحته وتحسن أحواله كان يقول لنفسه أنهم يريدون الاطمئنان على ميراثهم منه، يبحثون بفارغ الصبر عن يوم نهايته، ويقربون هذا اليوم بأي صورة من الصور.

كان يتخيل، بعين الخيال، المعارك التي ستقوم حتى قبل دفنه حول أشياءه وشقته وأثاث بيته. استمر تفكيره هكذا حتى انقطعت الخيوط بينه وبينهم. لا يعرف حتى أسماءهم. وعندما كان يموت واحد منهم لا يبلغونه، يعفونه من هذه المظاهر الاجتماعية التي يعجز عن القيام بها. يعرف بالصدفة بعد هذا من الذي مات ومتى ولا يحرك شيئاً في نفسه، يوهم نفسه أن الموت لا يعنيه ولا يحرك أعماقه مثل الأيام الأولى التي كان يهتم فيها بكل ما يجري في العالم.

ينظر إلى صفحة الوفيات، يتساءل: كم يموت من البشر في هذه اللحظة؟ ألف؟ ألفان؟ لا أكثر. قد يموت الآن مليون من البشر في كل أمكنة هذا العالم الواسع، وفي اللحظات التي يحدث فيها كل هذا الموت، هناك من يخرجون إلى الحياة، ثمة نساء في أماكن كثيرة تفتح فخذيها في لحظة المخاض لتخرج منها حياة جديدة، قطعة لحم حمراء تتحرك بعفوية معلنة عن بدء الحياة.

يقرأ أسماء الموتى، يصاب بحالة من التأمل عندما يجد إسماً يعرفه أو اسم شخص قريب له. يقلب الصفحة بسرعة، يصل إلى الحوادث، يقرأها بقدر من العناية. يتوقف أمام الحوادث الغريبة ويتساءل عمّا جرى للبلاد في الفترة الأخيرة. رجل يعاكس امرأة بأن يخرج لها عضوه في الطريق العام. يتساءل من جديد: ماذا جرى للبلاد؟ وطن آخر يخرج إلى الحياة في الفترة الأخيرة، دون أن يدري كيف ومتى حدث هذا. يصاب بحالة من الضيق، يقلب الصفحة، يعود إلى الاعلانات ثم يحل الكلمات المتقاطعة ويطفىء النور من زر بجوار السرير حتى لا يتعب نفسه بالقيام من جديد.

يحاول استجداء النوم الذي لا يحضر سوى بصعوبة بالغة. في هذا اليوم بالذات يصبح النوم مثل سراب الصحاري البعيدة. وفي ظلام حجرته تصله أصوات الشوارع القريبة. يسمعها جيداً وأحياناً يخيَّل إليه أنه يسمع همسات العشاق تصله بوضوح. يشعر ببخار الغضب يصعد إلى صدره كلما خُيِّل إليه أنه يسمع الآهات والتنهدات ولا يعرف كيف ينام في النهاية.

يقوم من سريره، يشعل النور، يتجه إلى مطبخه لا يوجد في ذهنه عمل معين يرغب في القيام به. ولكنه يدخل المطبخ، ينظر إليه، يرى الأرض أولاً التي اندلق قليل من

الدهن فيها عندما كان في درجة الغليان. مرت أيام وتجمد الدهن، أصبح يشكل طبقة بيضاء فوق البلاط ومع مرور الأيام البطيء تتجمع كميات من الأتربة حول الدهن فاستحال لونه الأبيض إلى لون رمادي وأصبحت المنطقة الرمادية جزءاً من الأرضية.

يدوس على الأرضية، على رقعة الدهن المتجمد تترك قدمه بصمتها، فهو يدوس حافياً في هذا الوقت من الليل. وبصمة قدمه تبدو واضحة الإصبع الكبير يبدو كبيراً والإصبع الصغير يبدو صغيراً. ولأن قدمه يترك هذه البصمة كثيراً فقد تقاطعت بصمات وملامح أقدام. وهنا يوجد جزء من قدم وهناك جزء من إصبع وفي هذه الناحية جزء من خط في القدم يحدد سكة السفر التي لم يسافرها أبداً.

في بعض الأحيان، كان يشم رائحة الدهن المتجمدة ولكن الإلفة اليومية جعلته يشم الرائحة على أنها من الأمور الطبيعية. ومع مرور الوقت أصبح لا يذكر متى حدث هذا؟ وهل حدث منه هو أم من شخص آخر كان يسكن هذا البيت قبله.

يكتشف وهو في المطبخ أنه لا يوجد هناك ما يفعله فيعود إلى الفراش، يتحدث فيه صامتاً. يلتقي الصمت بالظلام فتبدأ أذناه في الصفير وكلما أصبح الصمت غويطاً والظلام

مكعبات حتى يزداد صفير أذنيه. يرتفع الصفير فيسد كل أبواب العالم المظلم، يمد يديه، يسد بهما أذنيه فيزداد الصفير ارتفاعاً. يتذكر ما كانت تقوله أمه له في الزمن الأخضر الذي ولّى ولن يعود، كانت تقول أن من تصفّر أذنيه فإن هذا معناه أن هناك من يمسك في سيرته في نفس الوقت في مكان آخر.

يبدأ التطواف والرحيل بحثاً عمن يتكلم عنه الآن في أي مكان من العالم وبأي الكلمات ويتعب من الطواف فيتمنى أن تكون من تتكلم عنه الآن هي شهد.

وشهد في التاكسي الذي تحرك بها من مصر وعندما تركب التاكسي فإنها تفضل الجلوس بجوار النافذة تطلب ذلك من السائق فذلك أفضل لها من حصار الآخرين حيث يوجد شخص على يمينها وآخر على يسارها. في جلستها هذه تغمس عينيها في الجو القادم من خارج السيارة ووقت العودة بالنسبة لها وقت كئيب لا طعم له. تفكر في اللقاء القادم كم يفصلها من الوقت عنه، تذكر المبلغ الذي أخذته منه. تفكر في الطريقة التي ستنفقه بها. ستكمل الشهر منه. يسعدها تداخل أيام التوقيت العربي والتوقيت الإفرنجي. تقبض من عملها بموجب التوقيت الإفرنجي وتقبض من حبيب الروح والقلب حسب التوقيت العربي وهذا يحل لها الكثير من

مشاكلها المالية. تقسم المبلغ في ذهنها، تتمنى وهي في السيارة لو كان معها قلمٌ وبعض الأوراق حتى تجري حساباتها على الورق. فكّرت أكثر من مرة بالاحتفاظ بالورقة والقلم حتى تجري حساباتها على أساس مكتوب بدلاً من الحسابات الذهنية التي تتبخر من ذهنها بسرعة وعندما تصل إلى الحسابات الخاصة بها تسأل نفسها: ماذا كانت ستفعل بدونه؟

تفكر في البيت الذي ستصل إليه، عليها أن تشتري بعض الأشياء، في مصر لا يمكنها الشراء بسبب النظام الصارم الذي يفرضه عليها وكذلك لا يمكنها العودة ومعها بضائع من مصر لأن خالتها وزوج خالتها يعرفان أنها تذهب لزيارة أمها والذهاب إلى أمها لا يمكن أن يكون مروراً بمصر مفروض أنها تذهب إلى أمها من خلال الزقازيق ولهذا تشتري المطلوب منها حتى لا ينكشف أمرها.

في الزقازيق تنزل من التاكسي الذي ينقلها من مصر لكي تركب تاكسياً آخر تصل به إلى القرية، وفي المسافة ما بين الموقفين تشتري المطلوب من سوق صغير لا يوجد به ما تراه في مصر أم الدنيا. ومع ذلك لا مفر أمامها من الشراء من هنا. تشتري: سجائر، كبريت، خبز طازج، حلاوة، طعمية ساخنة، شاي، سكر، خضروات، فواكه، لحم في بعض

الأحيان. لا يوجد رابط بين ما تشتريه سوى رغبتها في عدم دخول البيت بعد يوم من السفر بيديها فارغتين أو كما يقول المثل: بيد وراء والأخرى أمام. في كل مرة تشتري بعض الهدايا وتضعها بمفردها حتى تقول في البيت أن أمها أرسلتها معها لأختها وزوج أختها. تكثر من شراء السجائر والشاي والبن وبعض التوابل وتختار هدية تقول إنها منها لخالتها وأخرى لزوج خالتها. تختار الهدايا التي تنفع وخالتها هي التي طلبت منها ذلك. هدايا يمكن استخدامها في الحياة اليومية. ملابس، أطعمة.

تركب التاكسي من الزقازيق إلى البندر وفي المسافة بينهما تتذكر بعض الأشياء التي نسيت شراءها. تشتريها من البندر. من سوق أصغر وأكثر رداءة من سوق الزقازيق والحقول تطل عليه من كل جانب والتراب يغطي البضائع وتبدو على الناس حالة من اللامبالاة وفقدان الرغبة في مواصلة الحياة. من البندر تركب آخر مواصلة إلى البلد. يصل التعب إلى مداه. تعد الدقائق حتى تصل إلى البيت ويكون وصولها بالليل. تنزل على الطريق، تسير. الظلام هنا له معناه والهدوء والصمت يصلان حتى نخاع العظام. تسرع في سيرها. تنساب في الشارع مثل سحابة صغيرة.

ما أن تدخل البيت، حتى تترك ما معها لخالتها، التي

تسعد به وتدخل غرفتها، تغلق الباب جيداً عليها، تسد النوافذ، تقيم فاصلاً بينها وبين العالم. تحكم المنافذ جيداً وكأن الكآبة سترشح عليها من عقب الباب ومن ثقب المفتاح ومن مفصلة الشباك. تغلق وتسد هذا كله وكأنها تعزل نفسها عن هذه الكآبة من الآن.

تخلع ملابسها، يخيل إليها أنها تخلع اليوم كله عن نفسها. وتتخلص منه وتحاول العودة إلى ما كانت عليه قبل بدء اليوم من جديد. تتناول طعامها. تجلس في غرفتها بمفردها. تحاول النوم. تبدو متعبة ومع هذا يجافيها النوم. تعد من واحد حتى مائة. سمعت أن ذلك يجلب النوم ولكنها لا تنام. تنطق بجملة واحدة ألف مرة. أي كلمة ترد على الخاطر تكررها.

تحاول أن تشغل نفسها بأمر آخر، تتخيل شكل الغد، يوم السبت الذي يأتي بعد الجمعة اليتيمة. لِمَ لا تقول أنه السبت اليتيم؟ الأوقات فاترة تقضي عملها في قلق واضطراب وحيرة متبرمة. إنها حيرة ما بعد الأوان لا تعرف ماذا تريد من نفسها؟ هل تريد ما يثيرها وما يشعرها بالهياج وما يحرك كوامن نفسها وركود حياتها ومشاعرها. سر غريب ـ تقول لنفسها ـ يربطها إلى هذا الرجل. صباح الغد، السبت، أول أيام الأسبوع. في الأيام الأخرى من الأسبوع تنهض فرحة، تشعر

بحالة من الشوق للعمل، إنه نوع من التغيير يخرجها من روتين حياتها الرتيبة. تذهب في بعض الأحيان قبل موعد العمل بساعات. تجد السعاة ينظِّفون الوحدة والباعة يفرشون أماكن البيع في بطء وتكاسل ولكنها تكون سعيدة. أما هذا السبت بالذات.

ـ إنه السبت اليتيم.

تقول لنفسها ولكنها مع تقدم النهار تزايلها روح المرح التي تحاول تصنُّعها. يبدأ السبت اليتيم في حياتها هكذا. من اللحظات الأولى، لا تكون لديها الرغبة في النهوض من فراشها. تتمنى لو مكثت اليوم كله هنا. يكون القلب متعباً وتطوف بذاكرتها كّافة الأشياء الرديئة التي فعلتها في حياتها ويستبد بها حزن عميق الجذور وترين في جو الغرفة سحابة من الغم. تتحرك مثل سحابة من الغبار في يوم بدون رياح.

تكرر لنفسها، إنه فعلاً السبت اليتيم، تفكر في عدم الذهاب إلى العمل وأخذ إجازة اليوم، تبدو الفكرة مقبولة في بعض الأحيان ولكنها تخشى الاختناق من الوحدة وتقول أن الآخرين أفضل من الإحساس بالوحدة. وتذهب.

تحمل جبال الهموم وحمول الضنى وتذهب.

وما إن يشاهدها زملاؤها في العمل حتى يقولون أن

الـذباب الأزرق يتعـارك فوق مـلامح وجههـا ويبتعـدون عنهـا فتزداد حالة الكآبة عندها.

في البيت، الليل الذي يأتي بعد الجمعـة اليتيمة والليـل الذي يسلم شهد إلى السبت اليتيم. يأتي الليل ولكن النوم لا يأتي معه. تقول لنفسها أنه لا مفر من الـذهاب إلى الحمـام. تخشى نظرات خالتها وصمت البيت وما يمكن أن يـذهب إليه ذهن خالتها. ومـع هذا لا بـد من الحمام. في الشتـاء تأخـذ الماء من الزير في صفيحة قـديمة وتشعـل وابور الجـاز وتضع الماء عليه حتى تطير برودته وفي الصيف يكون الأمر أسهـل. تأخذ الماء إلى الحمام مباشرة.

تضـع صفيحة المـاء في منتصف الحمام وتضـع الطست النحـاسي الكبير بجـواره وتحضـر كـرسي الحمـام وتضعـه في منتصف الطست وتحضر الليفة والصابونة والفوطة الخاصة بها وكوز تحمل به المياه من الصفيحة وتدلقها على جسدها.

تخلع ملابسها، لا توجد مرآة في الحمام، فهو عبارة عن متـر في متر. مكـان من أربعة جـدران فقط. وفي البـاب من الداخل مسامير مدقوقة لكي يعلق عليها من يستحم مـلابسه. تنظر إلى جسدها،تمر عليه بيديها، تتحسسه تمـر على الصدر أولاً. تجـوس بيديهـا تحت وبين النهدين، تنـزل إلى البـطن والفخـذين. تحاول رؤيـة الفخذين تصعـد بالنـظرات إلى مـا

تحت البطن مباشرة حيث توجد منطقة التقاء الفخذين معاً. تضع يديها معاً ما بين الفخذين. تتمنى لو ظلت على هذا الوضع طويلاً. تتحسس مؤخرتها وترفع يديها إلى ظهرها تشعر بحالة من الاستثارة والاشتهاء. تتمنى في الحلم أي رجل حتى ولو كان زوج خالتها. تتمنى أن يحضر لها في هذه اللحظة. أن يحملها إلى سرير دافىء يضعها عليه ويخلع ملابسه مرة واحدة. يصبح كما ولدته أمه وأن ينام فوقها. يتحول خيالها إلى صور محمومة، العناق والقبلات، تشم رائحة الرجال واضحة. يزدحم الحمام الضيق بحضور مفعم، يمتلى بالآخرين وكلهم من الرجال.

تستحضر في ذهنها كل ما تسمعه من زميلاتها في العمل حول علاقاتهن مع الرجال. تسمع من جديد الكلمات الجنسية التي تسمعها منهن.

يكتسب كل هذا حضوراً حاداً ومدبباً في هذه اللحظة. تلسعها الرغبة بسياط رفيعة. تتلوى، تريد الرجل، تضغط الفخذين على بعضهما. ، تمسك صدرها بيديها، تحرِّكه بعنف، تحاول تقبيل أحد نهديها، تمد فمها وتحاول الإمساك بالحلمة بين شفتيها، تحاول أن تمصها، تكتشف أنها خالية، قطعة من اللحم الجاف مثل الشفق أو القش الذي وضعوه في الشمس فترات طويلة. تنظر إلى بطنها الذي لم يعرف الحمل

من قبل، تلاحظ أن بعض الخطوط بدأت تتضح فوقه. تصاب بحالة من الخوف. تعرف أن البطن البكر يبدو مشدوداً، جلده أملس وناعم ويخلو من أية خطوط. تسأل نفسها: من أين أتت هذه الخطوط. هل حملت وولدت وهي لا تعرف؟

ـ من أين يا حسرة؟

تحاول الخروج من أفكارها المجنونة، تمد يدها، تمسك بالكوز. تملأه من الصفيحة. ترفعه، تترك المياه تنساب فوق جسمها، تسمع صوت سقوط المياه فوق جسمها وسقوطها بعد ذلك على الطست النحاسي. يبدو الصوت عالياً لأن الصمت مؤكد في البيت كله. تتوقف. تنصت، تسمع صوت أقدام تمشي أمام الحمام تميز صوت الأقدام. زوج خالتها. يمشي في البيت حافياً في كل الأوقات وكم حدث من شجار بينه وبين خالتها بسبب المشي حافياً ومع هذا فهو مصر على ذلك. أما خالتها فتلبس شبشباً من البلاستيك.

الصوت خارج الحمام لزوج خالتها. يتوقف أمام الحمام تسمع صوت ضربات قلبه على قفص صدره، تشعر بلهيب الرغبة في عروقه، تتمنى لو فتح الباب الآن ودخل. الجماع في الحمام يبدو متعة لم تجرب الجماع من قبل لا في

الحمـام ولا على السريـر ولا في أي مكان ولا من خـلال أي وضع.

تخترق نظرات زوج خالتها باب الحمام. تشعر بها تصل إلى جسدها. تكويها بنار الرغبة. توشك أن تفتح البـاب وهي عارية وأن تشده إلى الداخل حتى يطفىء نارها.

تمـلأ الكـوز بـالميـاه من الصفيحـة. تـرش المـاء فـوق جسدها، يصبح الصوت أكثر ارتفاعاً من الأول. تشعر بـدبيب النمل بين فخذيها، في مثلث الشعر. ينتقـل دبيب النمل إلى صـدرها. يتجمـع عند النهـدين ويصل حتى الحلمتين. تمـد يـديها، تهـرش، يزداد الهـرش عنفـاً حتى تؤلم نفسهـا. وفي بعض الأحيان تحدث لهـا لذة نـادرة أثناء هـرش مثلث الشعر الأسود بين الفخذين. تفعل بنفسها ما لا يستطيع أي رجل في العالم أن يفعله بها، تزداد حركـة الأقدام أمـام الحمام. تغيـر رأيها. لن ترش الماء. تدلق ميـاه الصفيحة كلهـا مرة واحـدة في الطست، تنام في الماء، تحضر الصـابون والليفـة، ترغي الصابون حتى يكوِّن طبقة فوق سطح الماء. تنام على ظهـرها في الـطست الذي يبـدو صغيراً فتكـوِّر جسمها وتثني قـدميهـا وتقول لنفسها وهي تقاوم الرغبة في البكاء:

ــ بانيو بلدي.

تحاول أن تتذكر في أي فيلم شاهدت البطلة تفعل هذا.

من كثرة ما تشاهده من الأفلام في تليفزيون المجموعة الصحية أيام النوبتجية، لا تذكر الفيلم بالتحديد، وإن كانت تذكر المشهد جيداً. تمسك البطلة بسماعة التليفون. يغوص سلكها في رغاوي الصابون. والبطلة تنام في بانيو وليست في طست من النحاس، بانيو حقيقي. تتحدث البطلة مع حبيبها الذي لا تحبه. تصده وتبعده عنها وهو يسألها أين كانت وهي تكذب عليه تقول أنها كانت عند واحدة صاحبتها. وأنه لا يعرف هذه الصاحبة. مع أنها كانت ـ كما يوضح الفيلم ذلك بالصوت والصورة ـ مع عشيقها الحقيقي في شقة خاصة وأنها قضت معه يوماً كاملاً وتبادلت معه في هذا اليوم الجنسي ٢٤٣ قبلة أطولها استغرقت ٩٥ ثانية. وأن مرات الجماع وصلت إلى ١٣ مرة وأن طفاية السجائر الضخمة كان بها ١٦٣ عقب سيجارة مطفأ.

كل هذه الأرقام تعدها شهد وتقسم عليها ويقوم رهان بينها وبين زميلاتها عليها. ويؤجل الرهان لحين إعادة عرض الفيلم قريباً. وهو يعرض كل شهرين مرة.

ترغي الصابون من جديد. تتمنى لو نامت هنا حتى الصباح. تضع أكبر كمية من الرغاوي بين النهدين، تنقلها إلى ما بين الفخذين، تغمض عينيها، تحلم بالزوج والبيت والأمان والطفل. تسح دموع العين الدافئة وتختلط برغاوي

الصابون لأنها تدرك أن ذلك لن يحدث. قد يمضي العمر كله ولا يحدث طالما أنها مرتبطة به. تلعن اليوم الذي عرفته فيه، ومع هذا تتمنى لحظة لقائه. تبدو المسافة بعيدة بين اليوم واللقاء القادم ولا تعرف كيف ستتسرب الأيام بطيئة حتى تصل إلى لحظة اللقاء.

فجأة، يفتح باب الحمام عليها، يندفع بقوة، يرتطم بصفيحة المياه الفارغة فيدفعها حتى الجدار، يدخل هواء الدار إلى الحمام الذي أصبح مشبعاً بالماء والصابون ورائحة الأحلام.

تدخل عليها خالتها:

ــ خفت عليك.

لا ترد، تنظر إلى خالتها ببرود، دائماً تفعل هكذا، تضرب الباب من الغيظ أو من حب الاستطلاع. لا تعرف. تسألها خالتها:

ــ ماذا تفعلين؟

لا ترد عليها من جديد. سؤال خالتها ليست له إجابة عندها. لأن ما تفعله يبدو واضحاً أمام الخالة:

ــ أسألك ماذا تفعلين؟

تلوح الرغبة في العراك على ملامح خالتها فترد عليها:

ــ أفعل ما تشاهدينه بنفسك..

تكمل بعد لحظة:

ـ أستحمّ.

تقوم، تقف في منتصف الطست. تنبهها خالتها إلى أن الطست مصنوع من النحاس وهي تخشى عليه من الوقوف فيه. خاصة وأن شراء طست جديد مسألة ليست سهلة الآن. تلف نفسها بفوطة الحمام، تخرج من الباب. تسد خالتها الباب في وجهها:

ـ إلى أين؟

تقول شهد ببساطة:

ـ إلى حجرتي. هل هناك مانع؟

تسد خالتها الباب بجسمها، بعد أن كانت تسده بيدها فقط:

ـ زوج خالتك في البيت، ألا تستحين. نصف جسدك عار.

تضحك شهد ولكنها ضحكة المحزون، الذي يقهقه بصوت عال لكي يقنع الآخرين قبل أن يقنع نفسه أنه سعيد مع أن الضحكة تقطر مرارة وأسى تقول شهد:

ـ إنه في منزلة أبي وأنا مثل ابنته.

تدفعها خالتها إلى داخل الحمام وتغلق عليها الباب.

ـ على من يا بنت الـ . .

داخل الحمام، ترتدي ملابسها، وتلف شعرها في الفوطة وتخرج، تذهب إلى حجرتها. قال لها حبيب القلب، أن النوم بعد الحمام مسألة مؤكدة. ومع هذا فإن عذاب البحث عن النوم في فراش امرأة في سنها بدون رجل يبدو عذاباً بدون نهاية.

زميلة لها، ممرضة من بنات مصر، تلعب بالبيضة والحجر، نصف أحاديثها عن الرجال والجنس. قالت لها أنها لو اشترت قربة أو رجل بلاستيك لحلت كل مشاكلها. كانت دهشة شهد بدون حدود. قالت البنت البندرية أن القربة علاج مثالي، لوحدة المرأة في السرير بعد أن خلت البلاد من رجولة الرجال. سألت شهد نفسها وأين هم الرجال الآن بصرف النظر عن رجولتهم. قالت البنت البندرية التي تتكلم بحواجبها ورموش عينيها وصدرها أن القربة هي الوسيلة البدائية. أما الرجل البلاستيك فهو أحدث ما توصل إليه العلم. آخر تكنولوجيا العصر العجيب. في البدء كانت القربة وفي الختام الرجل البلاستيك، ولا أحد يعرف ما قد يستجد من اختراعات لعلاج شعور المرأة بالوحدة في عصر أصبح الرجال فيه عملة صعبة. تملأ القربة بالماء الساخن في الشتاء والماء الدافىء في الصيف. وقد تملأ بالهواء عندما يعز الماء

في بر مصر وهذا اليوم ليس ببعيد.

قالت شهد:

ـ المخدة تكفي.

ضحكت البنت البندرية:

ـ أنت متخلفة. المخدة كانت قبل القربة.

وتحكي لها وشهد تستمع: الرجل البلاستيك، رجل بالفعل، له شارب، تنفخه بفمها وإن كانت متعبة. وقلة الرجال تتعب المرأة دائماً وتجعلها تشيخ قبل الأوان. فعليها أن تشتري منفاخاً تنفخ به الرجل عندما يأتي الليل وتنام في حضنه. قالت لها أنها يمكنها أن تتحكم في درجة ليونة الرجل وخشونته وصلابته من خلال الهواء الذي تدفعه فيه. تأخذه في حضنها. وفي الصباح، بعد أن تنتهي مهمته بالنسبة لها يمكنها تفريغ الهواء منه ووضعه في دولاب ملابسها. حتى يأتي الليل مرة أخرى.

تسأل البنت البندرية:

ـ وما الحاجة إلى رجل إذن؟

قالت البنت البندرية أن استخدام الرجل البلاستيك ممنوع حتى الآن في البلاد. ومع هذا يمكنها استحضار رجل لها. سألتها شهد: هل لها رجل؟ فقالت البنت البندرية أن لها

رجل من البلاستيك. سألتها شهد إن كان يمكن أن تستعيره منها ولو ليلة واحدة. رفضت البنت البندرية وقالت إن هي أعطت شهد رجلها البلاستيك فأين إذن خصوصية العلاقة بينها وبين الرجل البلاستيك. تساءلت شهد: وهل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟

تدخل فراشها، تحاول النوم. تتذكر يومها ـ ولا تدري للمرة الكم ـ تتوقف أمام حادث معين، يسبب لها حالة من الحزن، الحادث جرى في المركز. شابان صغيران تابعاها في السوق. يبدو أثر لبن الأم على شفتي كلًّا منهما والزغب الخفيف يغطي مكان الشارب والذقن. يبدو أصفر اللون. مثل زغب الطير الذي يسبق طلوع الريش. سارا وراءها. أعجبهما جسدها. تفاصيل الجسد التي كانت واضحة. فقد كانت ملابسها ضيقة. عاكساها. سعدت هي بالمعاكسة وشعرت بنشوة نادرة. ضايقها أن المعاكسة تخلو من كلمات الحب والعشق والهيام. عاكساها بكلمات غليظة جنسية، فجة وقبيحة. سمعت كلمات عن العملية الميكانيكية للجنس. دغدغت الكلمات حواسها وانتشى جسدها بنشوة جديدة. سألت نفسها: هل يهجم عليها واحد من الشابين ويقف الشاب الثاني من أجل حراسة الطريق. هل يكون الشاب الذي يهجم عليها جاهزاً من أجل الجماع فوراً. هل

يمزق ملابسها بقوة وفوران الشباب أم يخلع هذه الملابس عنها برفق. وإن حدث هذا هل يرزقها الله بشخص يفرش فوقهما بطانية أو ملاءة حتى يصلان إلى لحظة النشوة. نظرت حولها، كان الشارع خالياً وأرضيته مليئة بالطوب والحجارة. وهذا قد يفسد متعة الوصال. تمنت أن يهجم عليها الفتى ويوقعها في مكان ولكن بدون طوب وبدون حجارة.

الشابان يتكلمان وجسدها ينفتح على وقع الكلمات وهي الآن تطلب الرجل أكثر من أي وقت مضى. إنها مثل الأراضي التي طال اشتياقها لسن المحراث. نظرت خلفها وابتسمت. أبطأت من سيرها. قال واحد من الشابين للآخر:

ـ هيا نعاين البضاعة.

رد عليه الآخر:

ـ لقد رأينا المؤخرة فقط..

أكمل الأول:

ـ لا بد من رؤية الوجه حتى تكتمل الصورة.

أسرعا في سيرهما، سبقاها وما إن وقعت الأعين الأربع عليها. حتى قال واحد للآخر:

ـ ألا تستحي، إنها مثل أمك؟

وانصرفا عنها.

لطمتها الكلمات، مثل أمه؟! هل كان يمكن أن تصبح أماً؟ إن الأيام تتسرب من بين يدي الإنسان دون أن يدري. إنها لم تعش شبابها ولا لحظات المراهقة ومع هذا خرج إلى الدنيا جيل يقول عنها أنها مثل أمه مع أنها لم تتذوق لذة الأمومة ولا اللذات السابقة عليها حتى الآن..

تبكي في سريرها حتى يأتي النوم إليها..

يأتي صباح السبت عليهما معاً..

تذهب هي إلى عملها، تقول لنفسها أن حياتها بدون رجل جحيم لا نهاية له. أما هو فيبدأ صباحه بالنظر إلى البيت وكل ما فيه، يقول أنه بيت لم تعش فيه امرأة من قبل أبداً.. إن الأعزب الكهل يرى شهداً في بيته. يراها بوضوح في الأطباق التي لم تغسل بعد والملابس القذرة والأرضية العارية، والجدران المغطاة بطبقة من التراب والعنكبوت المستبد في الزوايا والأسكان والحمام الجاف والمرحاض الذي تاه لونه الأصلي. لأنه لم يغسل منذ أن تم تركيبه هنا.

يهرب من هذا العالم. يرتدي ملابسه بسرعة، يقول لنفسه في المقهى قد ينسى كل هذا مرة واحدة..

ينزل متجهاً إلى المقهى الذي يجلس فيه كل يوم..

مدينة نصر: ١٩٨٤/٢/٢٤



المُحْتَوى



صدر للمؤلف:

روايات:

١ ـ **الحداد**: كتاب الطليعة ـ القاهرة: مايو ١٩٦٩.

٢ ـ **أخبار عزبة المنيس**: الهيئة المصرية العامة للكتاب سبتمبر ١٩٧١.
طبعة ثانية. روايات الهلال مارس ١٩٨٥. ترجمت إلى الروسية وصدرت عن دار «الأدب والفن» في موسكو ١٩٧٦.
الطبعة الثانية ١٩٨٤ عن دار «رادوغا».

٣ ـ **البيات الشتوي**: روايات الهلال سبتمبر ١٩٧٤. القاهرة.

٤ ـ **يحدث في مصر الآن**: الطبعة الأولى. القاهرة. طبعت على نفقة المؤلف. مارس ١٩٧٧ الطبعة الثانية، دار إبن رشد ـ بيروت ١٩٧٩.
الطبعة الثالثة: دار الأسوار، عكا القديمة ـ فلسطين المحتلة.
الطبعة الرابعة: دار المستقبل العربي. القاهرة. ترجمت إلى الروسية وصدرت الطبعة الأولى عن دار الأدب والفن. موسكو.
والثانية: عن دار «رادوغا» ١٩٨٤.

٥ ـ **الحرب في بر مصر**: الطبعة الأولى. دار إبن رشد ـ بيروت ١٩٧٨.
الطبعة الثانية، دار صلاح الدين. القدس. فلسطين المحتلة.
الطبعة الثالثة: القاهرة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٨٥. ترجمت إلى الروسية وصدرت عن دار الأدب والفن. ثم صدرت عن دار «رادوغا» ١٩٨٤.
ترجمت إلى الأوكرانية وصدرت في أوكرانيا ١٩٨٥.
ترجمت إلى الإنجليزية وصدرت عن دائر الساقي في لندن.

٦ ـ **شكاوى المصري الفصيح**: الجزء الأول: نوم الأغنياء. دار الموقف العربي ـ القاهرة. سبتمبر ١٩٨١. طبعة ثانية ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ديسمبر ١٩٨١.

٧ ـ **شكاوى المصري الفصيح**: الجزء الثاني: المزاد.
دار المستقبل العربي ـ القاهرة: ١٩٨٣. دار الوحدة ـ بيروت ١٩٨٣.

٨ ـ **شكاوى المصري الفصيح**: الجزء الثالث: أرق الفقراء. دار المستقبل العربي ـ القاهرة ـ ديسمبر ١٩٨٥.

قصص طويلة:

٩ ـ **أيام الجفاف**: مكتبة مدبولي ـ القاهرة.
دار العودة ـ بيروت ١٩٧٣.

١٠ ـ **في الأسبوع سبعة أيام**: الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ أكتوبر ١٩٧٥.

قصص قصيرة :

١١ ـ **طرح البحر** : مجموعة قصص . روايات الهلال ـ فبراير ١٩٧٦ .

١٢ ـ **تجفيف الدموع** : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ .

١٣ ـ **حكايات الزمن الجريح** : منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية ١٩٨٠ .

الطبعة الثانية دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ١٩٨٢ .

١٤ ـ **قصص من بلاد الفقراء** : قصص قصيرة وفيها نص رواية الحداد .

روايات الهلال . مارس ١٩٨٣ .

١٥ ـ **من يذكر مصر الأخرى؟!** : ستة نصوص قصصية وشهادة شخصية . وزارة الثقافة السورية . دمشق ١٩٨٤ .

تحت الطبع :

١ ـ **من يخاف كمب ديفيد؟!** : قصة طويلة .

٢ ـ **المصريون يحرقون كمب ديفيد** : وقائع مشاركة العدو الصهيوني في معرض الكتاب عامي ٨١، ١٩٨٥ .

٣ ـ الضحك لم يعد ممكناً مجموعة قصص سلسلة مختارات فصول العدد ٣٦ يناير ١٩٨٧ . الهيئة المصرية العلية للكتاب .

٤ ـ **أصوات الصمت** : حوارات أدبية وفكرية على الورق .

٥ ـ غرفة المطالعة: قراءات تركت صداها.

٦ ـ البيان الشتوي: طبعة جديدة.

٧ ـ شكاوى المصري الفصيح: الجزء الأول: نوم الأغنياء ـ طبعة جديدة.

أعمال مشتركة

قصص فانتازية من الوطن العربي:

قصص مشتركة بالإنجليزية مع آخرين. جمعتها وقدمت لها الدكتورة سيزا قاسم وصدرت عن دار الياس في القاهرة ١٩٨٥.

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا: شروق ـ تلكس: 93091 SHROK UN



.. «الديار تخلت عن ساكنيها، أدارت لهم ظهرها، حتى لمن فقدوا رجولتهم دفاعا عنها.

هذا هو كل ما هنالك.

يتحدث العاشق الكهل، مع العاشقة العانس. ويكمل.

ـ لقد نسي الرجال أن العدو كان من الخلف ومن الأمام، والآن علينا أن نتعامل كل يوم مع أعداء الخلف.

والعاشق الكهل مقاتل سابق، هو الآن من معوقي الحروب. أما العاشقة شهد، فهي فتاة ناعمة ملساء قدماها كأرجل الراقصات طولا وجمالا وعذوبة.

تبدأ رواية «القلوب البيضاء» بوجع التلاقي، الذي يدخل العاشق الكهل والعاشقة العانس إلى رحابة الصمت. ويحاولان الخروج منها ببوح العشاق الذي يدخلهما معا سجن الكلمات. وفي هذا السجن تحترق القلوب ولا يبقى سوى دخان القلوب المحترقة.

□ الروائي المصري الكبير يوسف القعيد في روايته التاسعة «القلوب البيضاء» والتي نشرت مسلسلة منذ فترة، يمضي خطوة أخرى إلى الأمام على درب عالمه الروائي. فيقدم تجربة جديدة وفريدة على كل عطائه الروائي السابق. إنه يحاول أن يجعل الناس والأشياء والمرئيات تتكلم. وذلك بلغة شاعرية عذبة. ومن خلال رواية لن تنتهي علاقة القارىء بها أبدا.

